**د. محمود محمد محمد عمارة**

أستاذ سابق

بجامعتى الأزهر وأم القرى

# نـــوح

## عليه السلام

## أول داع إلى الله

## ( من خلال آيات القرآن الكريم )

**الناشر**

**مكتبة الإيمان**

المنصورة ت : ٢٢٥٧٨٨٢

أمام جامعة الأزهر

الطبعة الثانية

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

# قصة هذا الكتاب

حدث ذلك منذ ثلاثين عاماً

جلست أمام لجنة الاختبار الشفهى . والمكونة من أستاذى المرحومين :

**الشيخ محمد الغزالى**

**والشيخ البهى الخولى**

وذلك لمناقشتى في بحث عن نوح عليه السلام طوله عشرون صفحة . وكانت هذه المناقشة هى المرحلة الأخيرة . والتى يتجاوزها الطالب ليكون قد حصل على درجة"الماجستير " في الدعوة والثقافة الإسلامية .

ومضى الحوار بينى وبين الشيخين كما أهوى ..

وفجأة : انعقدت في سماء اللجنة غيوم .. ثم كان ما يشبه البرق والرعد .. وذلك حين واجهنى الأستاذ البهى الخولى بما لم يكن لى في حساب حيث قال لى :

سوف ترسب .. وستعيد السنة ؟ !!

وكان طبيعياً أن يتجه بصرى إلى أستاذى الغزالى .. ليحسم الموقف لحسابى .. فقد كان يعرفنى ويعدّنى من تلاميذه المقربين .. لكنه أكتفى بابتسامته .. دون أن يتكلم لأنه شاهد المرحوم د . محمد بدران يتحفز لإنقاذى !

و لم تكن مصيبتى عندئذ هى : الرسوب ..

وإنما كانت بالدرجة الأولى هى : خسارتى رجلاً كالبهى الخولى أحبه .. وأجله .. وكيف أصبر علي جفائه الذى لم أتوقعه يوماً .. وكيف ألزم قلبى بعد ذلك حبه .. بعدما حدث ؟

إن إعادة السنة أمر وارد في حياة كل طالب علم ..

لكن المشكلة أن حبيبك قد قلاك .. بينما مودته وشهادته أثقل في الميزان من كل اعتبار .

وقد حاول الشيخ الغزالى إنقاذى .. لكن المرحوم د . محمد فتح الله بدران قفز من وراء مكتبه – وكان حينئذ رئيساً لقسم الدعوة – قفز ليهمس في أذن الشيخ البهى بأن"محمود عمارة " يرجى منه الخير .. وأنا أعده ليكون داعية .. ورسوبه يعنى حرمان القسم من أحد أبنائى البررة !

وأحسست بأمارات الرضا على وجه " البهى " .. والتى سرت إلى شيخى الغزالى..

ثم تحقق رجاء د. " بدران " بتنازل " البهى " عن تهديده لأحصل علي درجة الماجستير ..

واستدعانى " البهى " بعد المناقشة لأصاحبه في عودته إلى منزله بشارع قصر العينى .

ثم فاجأنى بما يلى :

هل تعرف لماذا كنت عازماً على إسقاطك في الامتحان ؟

لقد وردت في بحثك بعض المصطلحات العصرية . والمنسوبة إلى كاتب صحفى معروف من مثل قولك " قضية الساعة " و" سياسة الأمر الواقع " .. إلى غير ذلك مما يجرى علي ألسنة المحدثين من الكاتبين .

والمفروض ألا يقلد الدعاة غيرهم .. وإنما عليهم أن يلتزموا لغة خاصة تميزهم عن غيرهم . تحدد ملامحهم التى يجب ألا تغيب في الزحام .

وقلت له يا مولانا :

إننا أبناء البيئة التى نعيشها : نشرب من مائها ... ونتنفس هواءها .. ولابد من أن تجرى على ألسنتنا بعض ما يفرضة علينا إعلام يلح علينا بالليل والنهار .. لكن الولاء أولاً وأخيراً للحق الذى يجب أن يظل محتفظاً بوجودة المتفرد .

ولقد سعدت حقاً . لا بما حصلت عليه قبل قليل من درجة علمية .. وإنما كانت سعادتى بما قال الشيخ .. مما لا يعبر عن سقطة علمية .

أما سعادتى الحقيقية فقد تمت بما أفضاه إلى ونحن نأخذ سمتنا إلى بيته العامر .

فقد سلمنى النسخة – نسخة البحث – التى كانت معه وقال : اقرآ رأيى فيك يا "عمارة" :

١- أسلوبك من نوع نادر .

٢- فيك لمحات ذكاء .

٣- وفيك غيرة على الإسلام .

وبعد أن انتهيت من قراءة هذا التعليق .. قال :

وعليك أن تزورنى في منزلى بين الحين والآخر !!

وقلت له عندئذ :

يا مولانا .. ما حدث الآن يعدل في نظرى الحصول على الدكتوراه .. فضلاً عن الماجستير .. فشهادة البهى الخولى .. ورغبته في زيارتى له .. شرف عظيم لم أكن أحلم به !! لكنه يتحقق الآن .

وقد توالت اللقاءات .. والتى كنت أعود منها إلى بيتى محملاً بأطيب الثمر ..

ومن بين ما كنت أحمله هذه التجارب التي نعيشها .. وعلى الطبيعة .. والتى تؤكد لك أنك لا تسبر غور عالم وإن قرأت له مائة كتاب .. حتى تعيش معه .. لترى من تصرفاته ما هو أبلغ في الدلالة على عظمته ..

وكان من بركة هذه الزيارات .. هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارئ العزيز .. والذى كان صفحات .. ثم " كتيباً " طبعته دار السلام ..

ثم صار اليوم في حجمه الجديد .. فيه إن شاء الله ما هو مفيد .

**د . محمود محمد محمد عمارة .**

## مقدمة

سلك القرآن الكريم في دعوته إلى الخير طرائق شتى : من أبرزها لفت الأنظار إلى مصارع الغابرين .. الذين وقفوا حجر عثرة في طريق الدعوات .

فإذا التفت الناس إليها معتبرين .. يمكن أن تكون لهم حصيلة من التجارب تلقى مزيدا من الضوء على واقع الحياة .. فتتضح أمام أعينهم حقائق الأشياء كما هى .. فلا يقعون في أخطاء تورط فيها آباؤهم الأولون .

وإذا كانت دراسة القصص القرآنى لازمه في كل وقت .. فهى فى هذا الوقت ألزم.

فنحن نصارع عدوا ماكراً .. ولابد لكى نفوت عليه أغراضه .. ونبطل تأثير حربه النفسية .. لا بد من طاقة روحية مستمدة من القصص كما ورد فى القرآن الكريم .

فهو الذى يفصل الآيات في دائرة من الأحكام .. تكشف كل محاولة للأعداء -وفى مقدمتهم اليهود - تريد تزييف حقائق التاريخ : ومن هنا تبرز أهمية الماضى من وجهة النظر الدينية .. لإحقاق الحق .. وإبطال الباطل .. تثبيتا للمؤمنين .وتوهينا للكافرين - يقول الحق سبحانه وتعالى مؤكدا هذا المعنى :

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠١].

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [ هود : ١٠٠ ]

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ هود : ١٢٠ ] .

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤] .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [ الأحقاف : ٢٧ ]

ومن هنا .. نطالع قصص الأولين في آياته كما وقعت .. مرتبطة بأسبابها الحقيقية منسوبة إلى أشخاص يحملون نفس أسمائهم وقت أن صنعوا الأحداث .

وإذا كان قارئ القصة العصرية قد يضيف من خياله إلى أحداثها .. وتسمح له نفسه أن يملأ فجواتها من نسج هذا الخيال .. فإن قارئ القرآن يزايله ذلك الشعور .. إلا ما تخلفه أحداثها من انطباع يؤثر في نفسه تأثيراً يحمله علي أن يأخذ موقفا ما في الحياة .

إن قصص القرآن كلها حق .. في لحمتها وسداها .. بلا زيادة أو نقصان .. ولهذا كان أحسن القصص علي الإطلاق .. لانه يزود القارئ بمتعة الحق الخالدة .. لا بنزوة طارئة تزول بزوال أسبابها :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [ يوسف : ٣ ] .

إنه يريد بالقصة وجه الحق وحده .. لا حكاية ملفقة ترمى إلى إثارة عاطفة وقتية .. أو تحدر دمعة يجف معها الانفعال .

ولعل هذا بعض ما يشير إليه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [ يوسف : ١١١ ] .

وقد وقع اختيارنا بعون الله تعالى علي قصة نوح عليه السلام لتكون مجلى لهذه المعانى .. وشاهد صدق على هذا النهج الرشيد في تربية المجتمعات عن طريق القصص الحق .

وسوف نرى قصة تحكى أعنف مراحل الصراع بين الحق والباطل في حياة الإنسان الباكرة .. على نحو لا يختلف كثيراً عن مظاهر الصراع بينهما اليوم .

مما يؤكد أن الكفر ملة واحدة في الكيد للحق وأهله .. وأن القرآن الكريم عندما يقدم للناس هذه التجربة الخالدة .. إنما يقدم لهم دروساً بليغة يمكن أن تفيدنا في صراعنا مع عدونا .

# فى السور القصار

## أول الغيث

ولقد جاءت أول إشارة إلى قوم نوح عليه السلام في سورة النجم في قوله تعالى : ﴿ **وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل : إنهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾

ولابد لنا من نظرة عامة إلى السورة الكريمة لنرى موقع الآية منها : فربما قادتنا هذه النظرة الكلية إلى حكمة ذكر قوم نوح بالذات موصوفين بأبلغ الظلم .. وأبلغ الطغيان .

وتضعنا السورة حيال الحقائق الآتية :

١- إنها تتحدث عن المعراج .

﴿ **ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ .

٢- تصرح بأسماء الأصنام لأول مرة .. في ثورة عليها تجردها من كل مضمون يجعل منها شيئاً مذكوراً يستأهل التوجه إليها .

﴿ **أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخري ؟ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل ا لله بها من سلطان**﴾ .

٣- الأمر بالإعراض عن أصحاب الاتجاه المادى في الحياة . والذين استغرقتهم الشهوات الدنيا فراحوا يناوئون دعاة الحق .

﴿ **فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ .

وقد ثبت تاريخيا أن ردود فعل عنيفة قوبل بها حديث الإسراء والمعراج . كان من بعض صورها أن ارتد ضعاف النفوس عن الإسلام . تلك الفرصة التي استغلها رؤساء قريش لتصعيد العدوان . والتفنن في إيذاء المسلمين .. ومواجهة الرسول بالتحدى .

بعد هذه النقلة في دعوته والتي يحاول بها إغراء الناس .. وتوسيع قاعدته بمكة فى زعمهم وهو ما يفهم من قول الحق سبحانه :

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً** ﴾ [ الإسراء : ٦٠ ] .

ويبين شدة وقع السورة عليهم ما قاله الإمام محمد عبده :

( والذى ورد في الصحيح أن النبى صلي الله عليه وسلم قرأ " والنجم " وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وقد يكون ذلك لبلاغة السورة . وشدة قرعها . وعظم وقعها )

وإذن .. فقد غيرت قريش خططها . فضاعفت عدوانها منذ اليوم .. ولابد من تدبير إلهي يقلم أظفار ذلك الوحش الذى بدأ يتحرك للانتقام .. وكان ذكر قوم نوح علي هذا النحو .. نذيراً مدمدماً يجيئهم من الماضى البعيد .. مهدداً بسوء المصير .

وعلى كل مفتون بهؤلاء الرؤساء ألا يغتر بهم .. فما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ! لأن الأمر أولاً وأخيراً لله وحده :

**﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن ا لله لمن يشاء ويرضى ﴾** .

وعلى كل راغب في الانتقام متحفز له أن ينعم النظر علي شاشة التاريخ ليري صورته الكئيبة في مستقبل أيامه .. من خلال الصورة التي ترسمها الآيات لقوم نوح .

**﴿ وأنه أهلك عادا الأولي . وثمود فما أبقي . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغي﴾** .

ليست هناك قوة أرضية تستطيع كشف الضر عنكم .. ولا تحويلاً .. ولا هذه الأصنام التي " سميتموها أنتم " وسماها " آباؤكم " من قوم " نوح **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾** [هود: ١٠١ ] .

وإذا كانت الآيات الكريمة تقدم الحديث عن إهلاك قوم عاد وثمود .. فلأن قريشاً كانت تمر بديارهم وتعرف من أخبار دمارهم وكانوا أكثر منهم عدة وبطشاً ..

ويبرز قوم نوح بنوع من الظلم والطغيان فاق كل ما يخطر علي بال القوم عن عاد **﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلَادِ﴾** [الفجر٩،١١ ] .

فكيف بقريش .. ولم تبلغ معشار ما آتاهم الله ؟

وما هي قوتها إلى جانب قوم نوح الذين بلغوا في الظلم والطغيان منتهاه . ومع ذلك فقد رسبوا في القاع ؟ ! إذا كان قوم نوح ضاعوا هكذا . كموجة حائرة تكسرت علي

شاطئ الحياة الراصدة . فإن خطراً جسيما يتهدد قريشاً .. فلتعدل إذن من سلوكها وتطامن من كبريائها . وإلا . فقد مضت سنة الأولين .

وإذا كانت آيات سورة النجم قد تكفلت ببيان المصير المشترك الذى ينتظم كل المكذبين .. وهو ما يجب أن تعيه قريش جيداً حتى لا يعيد التاريخ نفسه معهم .

وإذا كانت قد ركزت الحديث حول " قوم نوح " لا نوح نفسه لتضرب بهذا الحديث كبرياءهم المزعوم .

فإن ما ورد في سورد " ق " يزيح الستار عن منبع هذا الطغيان وهذا الظلم .. وهو إنكارهم للبعث . وما يستتبعه من ثواب وعقاب من شأنهما فطم الناس عن العصيان .. فهل كان لقوم نوح موقف من هذه القضية صاروا به أظلم وأطغي ! ومن ثم .. أحاطت بهم خطيئاتهم ؟

نعم .. لقد حددوا موقفهم منها .. بالإنكار طبعاً ! وذلك ما أشارت إليه سورة"ق"

**﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾** .

كذبت قوم نوح .. قبل من ؟ وبأي شيء تعلق تكذيبها ؟

لقد كذبت قبل قريش التي تخاطبها الآيات الآن .. وكذبت بالبعث والنشور ..

فالمعتدون من مشركي مكة " عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد " !

فقوم نوح سبقوا .. فوضعوا بذرة الإنكار .. ثم خلف من بعدهم خلف شايعوهم فأنكروا البعث الذى يقرره محمد عليه السلام بعد أخيه نوح عليه السلام .

ونسي الجميع قصة البذرة السحوق تستحيل نخلة فرعاء . وأن بعثهم كذلك : "كذلك الخروج" .

والقرآن الكريم يسلك الجميع ضمن سلسلة الذين ضلوا المسير فجهلوا المصير ؟

**﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾** .

وبعد أن تصورت قريش جانباً من بأس الله سبحانه .. وبطشة بالمكذبين قبلهم من قوم نوح ..

بعد أن رأوا قلاع الظلم والطغيان تتهاوي .. بينما كان أهلها ملء سمع الحياة وبصرها عُدَّة . وعدداً ..

وقبل أن يكذب الملأ من قريش علي أنفسهم فيحسبوا عقاب قوم نوح كان "شخصياً" وربما هم بنجوة من مثله ..

تجيئهم سورة " القمر " .. فتكشف لنا عن قوة الشبه بين الظاليمن قديماً وحديثاً .. مسلكاً ومصيراً .

وكيف تكون الحسنى عاقبة المؤمنين القانتين لله سبحانه .. الذين يقفون اليوم في شخص نوح عليه السلام علي أشلاء القوم مستمسكين بحبل الله المتين .. الذين وافتهم رحمته في ساعة العسرة سنة منه سبحانة يتذاكرها الدعاة إلى الله . . كلما أدلهمت الخطوب :

إن قريشاً لم تكتف بالتكذيب مرة أو مرتين .. بل كان لها شرعة ومنهاج حياة ..

﴿ **وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها** ﴾ لكنهم يستمرون في تكذيبهم عمقاً واتساعاً :

عمقاً .. حين تقف موقف العناد المصر حيال كل آية بينة ..

واتساعاً .. يستوعب كل رسول سابق ولاحق :

﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر** ﴾ .

وقد سبقهم إلى تهمة الجنون . . كماسبقهم إلى التكذيب المستمر قوم نوح :

﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقي الماء علي أمر قد قدر وحملناه علي ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ .

فقوم نوح عليه السلام أوقعوا التكذيب العظيم بجميع الرسالات وجميع الرسل .

وأنث فعلهم تحقيراً لهم وتوهينا لأمرهم .

ولما كانوا مقيمين علي التكذيب .. عد عدم الانفكاك عنه – لكونه جبلة منهم مستغرقاً لجميع ما بعدهم من الزمان .

( وكانوا قد سنوا سنة التكذيب . فكان عليهم مع وزرهم وزر من يأتي بعدهم . ولما كان ما قبلهم من الزمان يسيراً في جنب ما بعده عد عدماً . فلذلك ذكر الظرف – قبلهم – من غير حرف .. لأنه – مع أنه الحق – أعظم في التسليه ) [١] .

وكأنما قوم نوح موجودون الآن يمارسون حياتهم مكذبين .. ولكن تحت أسماء جديدة هي : أبو جهل .. وأبو لهب .. وعتبة .

ومعني ذلك أن الطوفان الغارم يوشك الآن أن يطويهم كما طوى إخوة لهم من قبل. عاشوا نفس الظروف بقدر ما يقترب السفين من دعاة الحق ليحملهم فوق ثبج الماء ومن حولهم أشلاء الطغاة !!

ونعود إلى الآيات الكريمة نستلهمها العبر النافعة .. عسى أن يعين الفهم علي مزيد من المشابه بين الظالمين : لقد أسند التكذيب إلى القوم مرتين :

﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح . فكذبوا عبدنا** ﴾ .

أى أنهم تنكروا لفطرهم المتجهة إلى الحق أصلاً فحملوها علي التكذيب حملاً .. وما زال القوم يكذبون .. ويكذبون .. حتي صار التكذيب عاطفة سائدة .. وعقدة لازمة تصدر عنها أفراد التكذيب .. هكذا بلا تكلف . والتي كان منها تكذيبهم لرسولهم : ﴿**فكذبوا عبدنا ..** ﴾ .

ومع أنهم لم يعاصروا سوى رسول واحد هو نوح عليه السلام .. إلا أنهم عدوا مكذبين لكل الرسل من حيث اجتماع الرسل علي الحق الذى يدعوهم إليه رسولهم نوح.

فأى إنكار للحق المجمع عليه .. إزراء بالكل . وقد ضرب الله سبحانه قوم نوح مثلاً يؤكد ذلك المعنى :

﴿**وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ [الفرقان : ٣٧] .

---

(١) تفسير البقاعي .

والاستهزاء بالحق مظهر فقدان الإحساس بالجريمة إلي حد يصم فيه الجاحد أصح القضايا بالكذب .

ومتى صار قلب الحقائق ديدن الإنسان كان لونا من العقاب يلازمه في حياته كفاء ما قدمت يداه من خراب في الداخل .. وتخريب في واقع الحياة .

يفهم ذلك من قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الروم : ١٠] .

وعندما يصل التبجح إلى درجة يتهم فيها الجاهل أعقل الناس بالجنون .. فإن التهمة فضلاً عن سقوطها قبل أن تصل إليه لا تستحق ردها أو الرد عليها . وكان الأمثل حينئذ أن يتجه الداعية إلى الله سبحانه يعوذ به من شرور الناس ..

من هنا يقول نوح عليه السلام : " إنى مغلوب فانتصر " .

وهو عليه السلام يضع بين أيدينا قانون إجابة الدعاء : إنه الإحساس العميق بالضعف وفقدان الحول . ثم التوجه بوجهه إلى الناصر الحقيقي وهو الحق سبحانه . القادر علي كشف الضر .

وقد تجلي ذلك في قوله عليه السلام : " إنى مغلوب " يتجه بها إلى من بيده النصر.. وما تحمله الكلمة من دلالة علي التواضع والافتقار إليه سبحانه وتعالي .. ثم يجئ النصر معطوفاً بالفاء في قوله سبحانه : ففتحنا أبواب السماء .. " .

ويدل هذا العطف علي التلازم بين الدعاء بحيث لو جاء طبق سنة الدعاء لجاء الفرج لازمًا له . وبأقصي سرعة ممكنة !

ثم جاء الطوفان ليحصد القوم .. فكانت سلوة النصر بعد وحشة التفرد بين قوم يتنادون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . وقد بقي هذا المشهد آية : فهل من مدكر ؟

هل من معتبر يدل بماله وشيعته .. يري هذا المشهد فيكسر من حدة غروره .. حتي لا يصيبه مثل ما أصاب قوم نوح ؟

وهل يعتبر دعاة الحق في كل زمان ومكان .. حتي إذا ما رأوا عدوهم يكاثرهم بالأحلاف والعتاد .. حتي إذا ما رأوا اليهود مثلاً يدلون بأسلحة الدمار .. ويستمسكون

بحبل من أمريكا القوية الغنية .. زاد في صدورهـم أمـل الواثـق بنصـر الله والفتـح .. لقـد وقف نوح عليه السلام .. وحيداً ..

يجاهد سكان الأرض جميعاً .. فما وهن لما أصابه في سبيل الله .. وما ضعف .. وما استكان .. حتي جاءه النصر المأمول .

أليست نسبة المؤمنين من قوم نوح .. إلى أعدائهم حينئذ بأقل من نسبة قوتنا الآن إلى قوي الاستعمار والصهيونية ؟

إذن : فإن هذا التجمع الباغي مقضي عليه بالفشل إذا ما استفدنا من تلـك الـدروس الغالية .

وكم من قوي باغية عاتية .. ذابت قوتها إزاء عزمات المؤمنين الواثقين بالله سبحانه وتعالي .

لقد جربت قريش فتحزبت .. ومن قبلها قوم نــوح ... فضـرب الله سبحانه ذلـك التحزب فتفرق من بعد قوة أنكاثاً .

فلم يكن العدوان في مكة مرضا فرديا .. يطويه المرء بين جوانحه ثم يغلق عليه بابه .

بيد أنه مبدأ التقي عليه المعاندون .. وتنادوا به من كل فج .. مدافعين عنـه . بـاذلين النفس في سبيله ..

وهو بهذا المفهوم خطر علي الدعوة الجديدة .. مما لو كان نزعـات فرديـة تمـوت في صدور أصحابها .

وقد ضرب الله سبحانه قوم نوح مثلاً لهذا التحزب الذى انفرط عقده .. علي رغـم أنه تحزب ضم سكان العالم حينئذ !!

كان أقوي حلف شهدته الحياة في بواكيرها الاولي .

ومع ذلك فقد تهاوي حجراً حجراً .. لأن قوته لم تكن من ذاته .. بـل كـان الأمـر فورة انفعالات . واندفاعات غرائز جامحة .. لا تصبر علي نار الكفاح .

وذلك ما تكلفت به آيات سورة " ص " :

نقرأ الآيات الأولي من السورة الكريمة .. فتسمع وقع أقدام الملأ منهم يجوبون الأرض جيئة وذهاباً في محاولات لجمع الشمل الممزق .. حول ما ارتأوه من باطل وزور:

**﴿ أجعل الآله إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا علي آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب﴾.**

ولو كانت قريش تسائل الواقع .. وتستقرئ التاريخ .. لوفرت علي نفسها ذلك الجهد المستميت في سبيل تجمع . يولد .. ليموت !

فهذا الجند المدل بقوته وعدده مهزوم في جولة قريبة .. علي يد قوة الإسلام التي تقدم إلى ما عملوا من عمل فتجعله هباء منثوراً ..

( جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ) .

وقد سبقهم إلى التحزب .. أقوام :

**﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ .**

وهذا هو الوعيد الحق .. من قبل من يقدر علي تنفيذه سبحانه .. وما هو من الظالمين ببعيد .. فليحذر الذين يخالفون عن أمره .. وليفتحوا أبصارهم جيداً .. ليروا قمة الطغيان.. والظلم .. من قوم نوح أين هم الآن ؟

وماذا تنتظر قريش إذا لم تع ذكراهم ؟

**﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ .**

## في سورة الأعراف

سورة الاعراف أول سورة طويلة من السور المكية التي عرضت لتفصيل أحوال الأمم السابقة مع رسلهم . ولم يسبقها في هذا الشأن سوى ثلاث سور من المفصل عرضت كل واحدة منها لإجمال الحديث عن بعض الأنبياء والرسل .

ثم جاءت سورة الأعراف بتفصيل كثير مما أجملته هذه السور الثلاث في ناحية التذكير بأحوال الأمم السابقة " (١) .

وقد اتصل هذا الجانب من قصة نوح بجو السورة العام .

فالآيات هنا تروى كيف نمت بذرة الاستكبار بين قوم نوح .. هذه البذرة التي وضعها من قبلهم إبليس اللعين كما قصت علينا السورة في مستهلها :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [ الأعراف : ١١ ] .

وكما طغى الماء فطوح بقوم نوح .. هناك خلف أسوار الحياة .. فقد تأدى استكبار إبليس به إلى الخروج من رضوان الله .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصغرين * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ (٢)

ثم كانت الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده طابع السورة العام .. وضعاً للأمور في نصابها وعوداً بالإنسان إلى حجمة الطبيعي في صلته بالحق سبحانه ..

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

---

(١) تفسير القرآن الكريم للمرحوم الشيخ محمود شلتوت .

(٢) الأعراف : ١٢ : ١٣ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) .

والدعوة إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأفراد أساس دعوة الرسل .. وعليها يقوم البناء الفكرى والوجدانى للإنسان . ليصح تصوره للكون والحياة .

وليستقيم في ذهنه معنى الألوهية .. ورحمة ا الله بعباده إذ يرسل إليهم رسلا من أنفسهم .

وهو ما رفضه الملأ من قوم نوح حين استكبروا استكباراً .. وأنكروا أن يكون الرسول بشراً منهم .. في غير ثقة منهمه بالإنسان الذى لا يقدر - في زعمهم - على تحمل تبعات الرسالة .

وهو المعنى الذى وضع إبليس اللعين أساسه حين رفض السجود لآدم عليه السلام رفضاً قاده إلى الكفر بالله .. والوقوف في سبيل الدعاة إلى الحق ما دامت الحياة ..

وجاء قوم نوح ليكونوا أبرز حلقة في سلسلة هذا العدوان المتطاول عبر الزمان .

يقول الله تعالى في سورة الأعراف : ٥٩ - ٦٤ :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ .

**تمهيد :**

كل مولود يولد علي فطرة الحق .. فهو مهيأ لتلقية .. مرشح للقيام بأعبائه .

لكن هداية الفطرة بذاتها بمجردة غير كافية .

لأن هناك مؤثرات داخلية .. وخارجية . تزين للإنسان الباطل الذي به يشغب على الحق.

فلما لم تكن هداية الفطرة واضحة تماماً .. كان لابد من عون خارجي يزكى ما بالداخل من ميل إلى الحق .

وكان إرسال الرسل عليهم السلام .. لهذه الحكمة .. والتى يراد بها إعانة الإنسان على أمر الله تعالى .

---

(١) الأعراف : ٨٥

**أهمية القصة :**

ولقد كانت القصة أسلوباً مؤثراً من أساليب الدعوة على لسان الرسل عليهم السلام:

وما القصة في مجملها إلا براهين يحق الله بها الحق ويبطل الباطل بقدر ما كانت دليلاً على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وإخوته من الرسل .

يقول الرازى :

[ إعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة وبينات قاهرة . وبراهين باهرة .. أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام . وفيه فوائد :

**أحدها :**

التنبيه علي أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات .. ليس من خواص قوم محمد صلى الله عليه وسلم .

بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة والمصيبة إذا عمت خفت .

فكان ذكر قصصهم . وحكاية إصرارهم علي الجهل والعناد . يفيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام . وتخفيف ذلك على قلبه .

**وثانيها :**

أنه تعالى يحكى في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين .. كان إلى الكفر واللعن في الدنيا .. والخسارة في الآخرة .. وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الأخرة .

وذلك يقوى قلوب المحقين . ويكسر قلوب المبطلين .

**وثالثها :**

التنبية علي أنه تعالى .. وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين .. ولكنه لا يهملهم ..

بل ينتقم منهم علي أكمل الوجوه .

**ورابعها :**

بيان أن هذه داله علي نبوة محمد صلي الله عليه وسلم لأنه كان أمياً : وما كان طالع كتاباً . ولا تلمذ أستاذاً .

فإذا ذكر هذه القصص على الوجه . من غير تحريف ولاخطأ . دل ذلك على أنه عرفها بالوحى من الله تعالى .

[ وذلك يدل على صحة نبوته ]

فالقصة إذن مضمونة على آيات بينات .. من شأنها أن تنشئ في وجدان متلقيها يقينا بصدق من جاء بها ..

وذلك بعض مايفهم من قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

فالعبرة : من العبور وهو : الانتقال من جانب إلى جانب .

والعبارة هى : جملة تعبر من فمك إلى أذن سامعك .. وإذا كانت العبرة - بفتح العين - تعبر العين إلى الخارج .. فإن العبرة - بفتحها - تفيد :

العلم .. والذكر . والتفكر .. والخوف .. والحب .. إلى غير ذلك مما يحدث أثره في العقول والقلوب .

ويعنى ذلك :

أن القصة ليست حدثاً " كان " وانتهى كل شيء ..

لا.. إنها تعبر القرون . ليعالج بها واقع الأمة وحاضرها بدليل قصة موسى عليه السلام : فقد خوطب بها اليهود في عهده صلى الله عليه وسلم ..

[ ولقد جرت عادة الله تعالى بأنه إذا أورد على الكفار أنواع الدلائل أتبعتها بالقصص . ليصير ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل ] (٢) .

## طبيعة الدليل

والآيات التى نحن بصدد التعليق عليها من سورة الأعراف .. وقد نزلت السورة [ في المرحلة الأولى للدعوة ] فهى تعتمد على الأدلة التاريخية . التى يرى القوم آثارها بأنفسهم في ذهابهم وإيابهم . وتقلبهم في البلاد .

---

(١) الرازى : تفسير سورة الأعراف .

(٢) يوسف : ١١١ .

ولا شك أن ذلك هو الـذى يناسـب مبـدأ الدعـوة . حيـث لم تتهيـأ فـرص التفكـير للخصم المعاند حتى يقابل في عناده بالحجج أو البراهين .

وقد كان هذا هو الواقع :

فإن سورة الأعراف أول سورة طويلة من السور المكية . التي عرضت لتفصيل أحوال الأمم السابقة مع رسلهم .

و لم يسبقها في هذا الشأن سوى ثلاث سور من المفصل .. عرضت كل واحدة منهـا لإجمال الحديث عن بعض الأنبياء والرسل .

ثم جاءت سورة الأعراف بتفصيل كثير مما أجملته السـور الثـلاث في ناحيـة التذكـير بأحوال الأمم السابقة ] [١] .

إن للأحداث التاريخية أثرها البعيـد في حيـاة النـاس .. لـو أحسـنوا الإصغـاء إليهـا . والإفادة منها .

وهى إحدى أسس المنهج القرآنى في تربية النفوس .

وتبرز أهميتها في مراحل الدعوة الأولى .. وقبل أن تستعد الأذهــان للتفكـير العلمـى المنظم ..

ذلك .. بأنها تتجه مباشرة إلى القلب الحساس . فتثيره ليصحوه علـي حقـائق تـأخذ بحجزه إلى حياة أفضل ..

فإذا ما بلغت الأمة مرحلة الرشد الإنسانى كان العقل المفكر بعد ذلك دعماً لما آمن به القلب .. ووقاية له من الانحراف إذا ما توفرت أسبابه .. في عصـر تتعـرض فيـه قضيـة الإيمان للابتلاء .

ولئن كانت قصة نوح عليه السلام مع قومه .. قديمة قدم الحياة نفسها .. فإن القرآن الكريم يجدد مع الأيام ذكرها .. فى نحو أربعين موضعاً منه وعلى مدى تسعين آية تقريباً.

وذلك إحياء لعبرها .. كى تؤدى دورها فى تحقيق مرامى القـرآن .. إلى جـانب مـا احتواه من صور الدعوه إلى الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) تفسير القرأن الكريم للمرحوم الشيخ محمود شلتوت .

وسوف نزامل آياتها التي صرفها الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم - لنعـود في النهاية بيقين جازم : بأن الإنسان هو الإنسان !

وأن الصراع بين الحق والباطل قدر لازم .. ينحدر من الأسلاف إلى الأخلاف ..

## جوهر الدعوة :

وتتلخص القضية التى يدعوا إليها نوح عليه السلام في أمور هى :

أ- إثبات التكليف وذلك قوله تعالى : [ اعبدوا الله ]

ب - ثم الإقرار بالتوحيد . وذلك قوله تعالى [ مالكم من إله غيره ]

جـ- الإيمان باليوم الآخر . وذلك قوله تعالى [ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ]

وكأنما يريد أن يقول لهم :

إن الإله الحق هو : من يخلق .. ويرزق .. ويحيى ويميت .. ويعز ويذل .

أما آلهتكم فعاجزة .. غير قادرة حتى على أن تضركـم : إنهـا عميـاء .. لا تـرى .. صماء لا تسمع .. بكماء لا تنطق ..

وإذن .. فقوله تعالى [ مالكم من إله غيره ] تعليل .. ودليل على ما قبله وهـو الأمـر بالعبادة ..

فواجبكم أن تفردوه تعالى بالعبادة لأمرين :

لأن الداعى إليها هو الله المتصف بصفات الكمال والجمال .. ثـم حـذر العـذاب في اليوم العظيم ..

ألا إن نهاية الإنعام .. لتوجب عليكم نهاية الإعظام .. فاحذروا ..

ويظهر من جوهر الدعوة التى يدعون إليها أنها ليست ضغطاً ولا إكراهاً .. ولكنهـا حوار يراد به :

إقناع العقل بالحجة ..

والتأثير في الوجدان بالترغيب والترهيب .

ولاحظ من فقه الداعية قوله تعالى [ إنى أخـاف .. ] فلـم يجـزم بوقـوع العـذاب .. حتى يظل الأمل في الاستجابة موصولاً ..

## موقف الملأ .. أو الحزب المعارض

.يمكن ابتداء توقع نوعية الذين يأخذون بزمام المبادرة في التصدى للدعوة إذا فهمنا طبيعة هذه الدعوة :

**إن الدعوة الجديدة إنما هى :**

إسقاط للأقنعة الكاذبة عن وجوه الملأ :

الملأ : الذين يفرضون زعامتهم على الناس ..

فلهم وحدهم حق التشريع ..

ولهم أيضاً حق الأتباع !!

الرأى رأيهم .. والقول ما قالت حذام .

وكان طبيعياً أن يقود هؤلاء الملأ حملة التضليل من حيث كانت الدعوة الجديدة خطراً يتهدد هذه الامتيازات الطبقية ..

## خطورة الحزب المعارض :

من مجموع المعانى التي ذهب إليها المفسرون واللغويون تفسيرا لمفهوم كلمة " الملأ" يتبين لك مجموعة من الخصائص التى تجعل منهم خطرا ينبغى توقيه بالحكمة :

فهم الذين يملأون العيون أبهة .. بجمالهم ..

والصدور مهابة ..

ثم يملأون المجالس بأجسادهم ..

وهم فيما بينهم ..متمالئون :

يتمالئون .. أعنى : يتعاونون .. يتنادون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .. يمالئ كل واحد زميله علي أمره .. أى يساعده عليه . وإذ تقول اللغة :

الملأ : هم القوم ليس فيهم امرأة يتبين لنا أنهم العصبة أولو القوة : كلهم رجال أشداء. فليس فيهم ذلك الجنس الضعيف ..

أضف إلى ذلك:

أنهم جميعاً كفار :

لأن الله تعالى حين يقول في موطن آخر [ الملأ الذين كفروا ] ويعني ذلك أن بعضهم على الإيمان .. فإنه تعالى يقول هنا : [ قال الملأ ] أى أنهم جميعاً كانوا كافرين..

وبسبب من هذا الكفر الجماعى .. كان حجم عدوانهم كبيراً وخطيراً .. وكانوا بهذا المعنى : إعلاماً مؤثراً في الجماهير التي تفتن بهم .. وتتلقى عنهم تصوراتها حول أخطر القضايا السياسية والاجتماعية . والاقتصادية .

ومن ناحية أخرى : فهم الملأ :

الذين استجمعوا عناصر الطغيان :

أ – فقلوبهم قد امتلأت بحب المال . . والحياة

ب – ومن ثم فهم المختصون بالتصدى لكل حركة إصلاحية تحول بينهم وبين هذا الطغيان .

ولكن أقوى الأحزاب أتعسها ..

وإذا كان في العداوة الراكب .. والراكض .. والماشى .. والقاعد .. فقد كان الملأ أشقى طوائف الأمة كلها .. لأنهم يخوضون معركة خاسرة . لأن من ورائها الغرور .. الذى يجعل من صاحبة ذلك الطائر الذى كلما حلق في جو السماء .. بدا للعيون صغيراً .

*****

# شاهد من بنى إسرائيل
# على أهله

ماذا ينكر الطغاة ؟

إنهم ينكرون أن يكون للكون إله ..

وقد كان ملاحده اليوم أذكى منهم حين رفضوا هذا الهراء : فهذا هو أديب روسيا يقول :

[ إذا لم يكن هناك إله .. فكل شيء جاهز ]

أو بعبارة أخرى :

إذا لم تكن في حياتك عاطفة قوية .. بحيث تصبح كل المشاعر الأخرى أطفالاً يرضعونها .. أو ينامون علي صدرها .. فأنت أتعس إنسان في هذه الدنيا ] .

**القذيفة**

**من منطقة الأمان :**

لقد شكل حزب المعارضة " من قومه " . فكان حاميها حراميها ؟!

لقد كان المتوقع أن يكون الدم المشترك باعثاً لهم ليتفقوا معه .. وفى خندق واحد ..

ولكن الحقيقة الاجتماعية تقول :

إن التنافس يشتد .. كلما كانت درجة القرابة قوية . وإذا كان نوح عليه السلام قد جاءهم بالهدى .. فإن الرأى عندهم هو الرفض .. لأنه منهم .. ولو كان خيراً ما سبقهم إليه ..

**موانع الإيمان**

لقد كان الملأ هم الفئة المرشحة للتصدى للدعوة .. لماذا ؟

لأنهم كفار .. ونتساءل :

هل يمكن لإنسان .. كفر .. وغدر .. هل يمكن أن يجيئ حكمه علي الناس صحيحاً؟ .. بالطبع لا .

إنه الكفر .. وما يترتب عليه من عناد :

لم يكن موقف القوم غفلة .. ترتب عليها خطأ ولكنه العناد الذى أفرز الخطيئة !!

إن الظلام كما يقولون لا يبدأ عند المساء .. ولكنه يبدأ في القلوب .. وإذا كانوا يقولون : إن الجوع كافر .. فأشد منه كفراً ذلك الترف .. ذلك الشبع المتخم !

لقد تكالبت عليهم مع الكفر موانع قيدت خطاهم .. فلم تمض في اتجاه الحق .

موانع اجتماعية .. من الأعراف والتقاليد ..

وموانع نفسيه .. من الحقد والحسد ..

هذه الموانع التي جعلتهم يحكمون على نوح بما هو منه براء .

## حجم التهمة الباطلة

لقد قاد الملأ حملة التضليل فقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم :

[ **إنا لنراك في ضلال مبين** ]

إنه لم يكفهم الإعراض عن الحق .. بل عارضوه فنسبوه إلى الضلال .. ولاحظ من مبالغتهم في الاتهام حكمهم عليه :

بأنه في قعر الضلال .. من حيث جعلوا الضلال ظرفاً لا يحتويه ثم هو ضلال كبير تذهب النفس فيه كل مذهب ..

وهو مع ذلك بين لا يختلف فيه اثنان !!

ثم هم حين يحكمون عليه .. لا يحكمون بالسند المنقطع -!!- ولكنهم رأوه شخصياً غارقا في هذا الضلال ..

ولا تقول الآية الكريمة " فقال " بفاء التفريع .. لأن ما قالوه لا يمكن أن يكون فرعاً لما سمعوه ..

ولكنه قول بأفواههم .. قول " لقيط " .. لا نسب له فلا هوية له !!

ولقد ازدادت حملة الملأ اتساعاً .. وتنوعاً ...

تلك الحملة التى قادها العناد .. حتى حكموا عليه بأنه ليس فقط مجرد ضال - ولكنه مغرق في الضلال !

ولقد رأوه حقاً .. كما قالوا ..

ولكنهم ما رأوه كما هو .. في الواقع .. ولكن .. كما يحبون أن يروه . وما أكثر العظماء الأبرياء .. والذين نخلع عليهم من عواطفنا .. من انفعالاتنا .. لكنهم في الواقع شيء آخر ..

والظالمون لا يريدون ذلك الشيء الآخر " ولكنهم يريدونهم كما يشتهون وبئس ما يفعلون .. وما يحكمون !!

لقد كان الملأ من قوم نوح عليه السلام يشكلون بمسلكهم المعيب انحرافاً اجتماعياً خطيراً .. من شأنه أن يفتك ببناء الأمة .. التى هم جزء منها .

ولأنهم " كفروا " فإنهم مع هذا يشكلون بكفرهم ظاهرة مرضية هى هذا الكفر الذى كان سببا في خلل تصوراتهم .. ثم فى خطأ أحكامهم ..

ولا طريق إلى التخلص من هذا الداء العضال إلا بتوحيد الله دون ماسواه سبحانه من حجر أو بشر . أو شجر .

وما دام الرسول منهم .. فهو أرعى من غيره لمصلحتهم . وأحرص عليها .

ولو جاز عليه خداع .. لتخطى بالخداع قومه .. فهم أهله وعشيرته ..

ثم هو لم يكن بدعاً .. فهو يدعوهم إلى أفضل ما دعى إليه .

[ أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ]

لكن الدعوة وإن كانت منسجمة مع الفطرة السليمة . فإنها لم تلق آذانا واعية . ولا قلوباً صافية .. من حيث كان التوحيد قاضياً علي جماعة المنتفعين . . القابضين علي مقاليد الأمور .. على حساب القوى الكادحة .

لقد اندفعوا تحت وطأة الخوف من كل جديد- إلى الوقوف ضد الدعوة الجديدة .

ذلك بأنها تجىء لتضع حداً لابتزاز أموال الناس .. وجرح كرامتهم لتسدد وجهة الإنسان : كخليفة لله في أرضه .

بعدما كان أجيراً في قصور المترفين .

## رحلة في عقول الضالين

وكما أن توحيد الله شفاء من أدواء الكفر .. وكما كان منهج العبادة في الإسلام ضبطاً لسلوك الإنسان حتى لا يضل .. فإن الإيمان باليوم الآخر .. والخوف من عذابه العظيم أساس للإيمان بقضايا كثيرة تدعو إليها مصلحة الإنسان .

ولو لم يكن الإيمان بالآخرة حاضراً في قلب الإنسان لرفض كل حق مهما وضحت معالمه .

يفهم ذلك من قوله سبحانه :

﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مّنكِرَةٌ وَهُم مّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [ النحل : ٢٢ ]

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزّتْ قُلُوبُ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ ﴾ [ الزمر : ٤٥ ]

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مّسْتُوراً . وَجَعَلْنَا عَلَىَ قُلُوبِهِمْ أَكِنّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلّوْاْ عَلَىَ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الإسراء : ٤٥] .

ومعنى ذلك أن نوحا عليه السلام يدعوهم إلى تمام الصحة العقلية والنفسية والروحية بهذا التوحيد . ولكن التفكير المادى المريض .. والذى لا يجد من الواقع ولا من التاريخ دليلاً يشد من أزره يجمع أشلاءه المهلهلة ليرد هذه الدعوة الرشيدة ..

إن الرسول يقول لهم :

إذا كنتم تخافون .. فلماذا لا تخافون عذاب يوم تسقط فيه كل قيمة أرضية .. ولا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ؟

وإذا كنتم تسعون حقاً إلى مصلحتكم فهذا هو طريقها : توحيد الله عزّ وجلّ .

وعن هذه الوحدة في الألوهية ينبغى أن تتوحد القوي كلها .. بعيداً عن الخلاف الذى يستنزف طاقات الناس .. فيميت في أفئدتهم الحماس لنصرة الحق .. ويطفئ في ضمائرهم كل غيرة على الحرمات .. فماذا كان جواب القوم الذين يريدون أن يبقى سلطانهم .. ويمتد تسلطهم على رقاب الناس وأرزاقهم ؟. . ماذا قال الذين لمسوا في دعوة التوحيد .. وحدة الصف التي تزلزل من تحتهم عروشاً تستمد وجودها من دماء الكادحين؟

يقول الحق سبحانه :

قال الملأ من قومه : ﴿ **إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾

لقد ناداهم الرسول جميعاً .. لكن العصبة المستكبرة هى التي تتكفل بجواب يعكس أنفساً فارغة !

إن هول الصدمة أفقد الملأ وعيهم .. فراحوا يوجهون سهامهم إلى شخص نوح عليه السلام ..بدل أن يناقشوا معه قضيته . ومعنى ذلك .. أن عقولهم تهرب من وجه أدلة تحيط بهم من كل جانب وتترك الميدان خالياً لقلوب عليها أقفالها .. من الحقد والضلال لتحاول تشوية ذات الداعى بتهمة هو منها براء ... حتى في رأيهم جميعاً .

ولأن تهمة " الضلال " أبعد ما تكون عن نوح عليه السلام .. ترى القوم يستعيرون أكثر من أداة لتوكيد زعمهم ..

وإذا لم يجد رأى المستكبرين مدده من الإيمان بالله سبحانه وتعالى .. فإنه يستمد من طبائعهم المظلمة صوراً من التضليل ضمن خطة ماكرة لإيهام الرأى العام بأنهم على الحق:

فهو في زعمهم لا يقف علي شاطئ الضلال يغترف منه .. بل إنه غارق " في ضلال" .

ثم إنه ضلال مبين ظاهر لا تخطئه العين المجردة .. ومن ثم فلا يحتاج إلى دليل منطقى.. وأنه واضح كالشمس !؟

وهكذا يفعل الماديون المفلسون في ميدان الجدل .. عندما تحيط بهم خطيئاتهم .. ولا يجدون دليلاً يقيم وجودهم . إنهم يضعون القضية المطروحة في موقع البداهة !!؟

إنهم قد يلبسون أحياناً ثوب التفلسف الكاذب ايهاماً وتضليلاً :

ألم تر إلى قولهم : " لنراك " .

فهم يريدون أن يقولوا :

إننا لم نتهمك بالضلال إلا بعد بحث ونظر رأيناك على ضوئه غارقاً في الضلال المبين! .

وما ذلك إلا لحرصهم على إقصائه عن موقعه كداعية يهز العروش المتداعية .. ويعلن بدعوته بطلان قيم زائفه هم أصحاب المصلحة في الإبقاء عليها .

وقليل من الذكاء كان يمكن أن يقودهم إلى الحق إذا دعاهم إليه رجل منهم كنوح عليه السلام ... يعرفونه جيداً .. فلم يجربوا عليه كذباً .. و لم يذكروا عليه عيباً محدداً قد اشتهر به بينهم .. اللهم إلا تهويمات يطلقونها .. ولا تصبر على النقد الصحيح ..

بيد أن القوم كانوا ضحايا مدنية فاجرة تصد عن كل محاولة للإصلاح جديدة .. وكل مبدأ سبق إليه الفقراء .. والعاملون لا يجوز الإيمان به .. بل يصبح اعتناقه معيباً.؟! وبمثل هذا الميزان تعتل الأحكام .. فتختل الحياة بأسرها حين يدخل الزمن عاملاً في تقدير المبادئ ..

وفى غمرة هذا الفهم الخاطئ تضيع معالم الحق بقدر ما تسيطر أباطيل تفرزها رؤوس حاقدة .. ولكن .. إلى حين .

## معنى رد الرسول

**﴿ قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾**

لا بأس إذا بالغ خصمك في ذمك بالباطل .. أن تبالغ في الدفاع عن نفسك بالحق .. وهذا ما فعله نوح عليه السلام :

لقد بالغوا في نسبته إلى الضلال الذى صار في زعمهم ظرفاً له ..

فكان جوابه :

يا قوم : يقولها متودداً إليهم :

ليس بى ضلاله .. مجرد ضلالة .. لست على أى نوع منها .. فكيف بالضلال كله؟!

ولذلك لم يقل : " ضلال " فنفى الضلالة أبلغ في نفى الضلال عنه . كما قال المفسرون : وهو نوع من الاستدلال أبلغ فى عموم النفى . ولأنه نوع من التنبيه بالأدنى على الأعلى . وله شاهد في حياتنا .

فإنك لو سئلت : ألك تمر ؟ ... وأردت نفى الملكية قلت : مالى تمرة !

و لم يكتف عليه السلام بذلك .. بل عززه بدليل هو ما أشار إليه قوله تعالى :

**[ ولكنى رسول من رب العالمين ]**

فكأنه قيل : لماذا ؟ ... فقيل :

ولكنى رسول ... ويعنى : أن الرسالة لا تجامع الضلال .

أى : أننى ما دمت رسولاً فأنا على صراط مستقيم . فأين الضلال إذن ؟!!

إننى رسول : أ- أبلغكم رسالات ربى . ب- وأنصح لكم . جـ- وأعلم من الله ما لا تعلمون .

**مقومات الرسالة :**

لقد جاءهم نوح عليه السلام رسولاً يحمل مقومات الرسالة وهى :

١- علم .. لا يستدرك عليه ..

٢- وليس صاحب هوى .. وذلك يعنى سلامة قلبه .

٣- ثم إنه لا مصلحة له شخصية .. وذلك يعنى سلامة الوجهة ..وقد نبهت الآية الكريمة إلى أن طبيعة وظيفته تنفى أن يكون ضالاً .

أ - فقد جاء ليبلغهم البشائر والنذائر .. وذلك في ذاته رحمة مهداة .. لأن الحياة بلا تكليف حياة منتهية فانية .

ب - ثم هو ناصح أمين .. وناصح لهم بالذات ..

أريد لكم الخير ... لا غير ..

ألا وإن النصيحة في صورة ما .. قد يعود نفعها على الناصح والمنصوح معاً ..

لكنها هنا وبالذات تعود علي المنصوح وحده .. ثم هى قبل هذا خالصة لله تعالى .

ويعنى ذلك أن الداعية هنا قد استجمع خصائص الداعى كما يجب أن يكون :

فهو يبلغهم رسالات الله .

ثم يرغبهم في الالتزام بما يقول :

جاء في حاشية الجمل : [ حقيقة النصح ] تعريف وجه المصلحة . مع خلوص النية من شوائب المكروه .

والمعنى :

أنه قال : أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه . وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعاني إليه .. وأحب لكم ما أحب لنفسى .

قال بعضهم :

والفرق بين إبلاغ الرسالة . وبين النصيحة هو : أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه . وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها عليهم .

وأما النصيحة فهى :

أن يرغبهم في قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عذابه إن عصوه ]

ثم إنه عليه السلام قد جاءه من العلم مالم يأتهم ..والمنطق قاض باتباع من كان أعلم منهم ...

ولكن القوم يأبون إلا أن يشهدوا علي أنفسهم بالضلال بل كانوا من الضلال في القاع .

[ حيث وصفوا من هو بهذه المنزلة من الهدى بالضلال الظاهر الذى لا ضلال بعده.

وفيه أن مدح الإنسان نفسه .. إذا كان في مقام الضرورة جائز ]

والواقع أن الرسول لا يمدح نفسه هنا .. ولكنه يمدح ما جاء به من الحق .

ولكن ماذا تقول لأناس يحاولون قطع شجرة هم ينعمون بظلها .؟!!

ماذا تقول للملأ الذين يصنعون للجماهير عادات .. لتصنعهم العادات جميعاً بعد ذلك ؟!!

ألا ما أكثر القادة في دنيا الناس .. ولكن المهم : إلى أية غاية يقودون هؤلاء الناس؟!

لقد جاءهم الرسول بالهدى العاصم من الردى .

و لم يكتف بتمهيد الطريق .. لكنه يضع الخرائط بين أيديهم لتكون دليلهم علي الطريق ..

ولكن كان انفعالهم سريعاً .. وكان تفكيرهم بطيئاً

نصحت بنى عوف فلم يتقبلوا : رسولى و لم تنجح لديهم رسائلى

ومن مضاعفات ذلك تعجبهم أن يأتيهم رسول يحميهم من شقوة الأبد .. داعياً لهم إلى النعيم المقيم .

يقول الله تعالى :

**﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾**

**معنى الآية**

استبعد القوم أن يكون لله تعالى رسول إلى خلقه .

لاعتقادهم أن المقصود من الإرسال التكليف .

وأن التكليف لا منفعة فيه للمعبود لكونه متعالياً عن النفع والضرر ولا للعابد لتضرره في الحال – أى لا منفعة فيه بزعمهم – وأما في المآل :

فإن الله تعالى قادر علي تحصيله بدون واسطة التكليف .وأيضاً : إن العقل كافٍ في معرفة الحسن والقبيح .. ومالايعلم حسنه ولا قبحه .

فإن كان المكلف مضطراً إليه .. فعل .. لأنه تعالى لا يكلف ما لا يطاق .

وإن لم يكن مضطراً إليه .. ترك .. حذراً عن الخطر .

وبتقدير أنه لابد من رسول .. فإن إرسال الملائكة أولى لشدة بطشهم .. ووفور عصمتهم وطهارتهم . واستغنائهم عن الأكل والشرب والنكاح .

وبتقدير جواز كون النبى من البشر .. فلعلهم اعتقدوا أن من كان فقيراً خاملاً لا يصلح للنبوة ..

فأنكر نوح عليه السلام كل هذه الأشياء .

لأنه تعالى خالق الخلق .. فله بحكم الإلهية أن يأمر عباده ببعض الأشياء .. وينهاهم عن بعضها .

ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة لأن ذلك ينتهى إلى حد الإلجاء المنافر للتكليف .

ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول ملكاً لأن الجنس إلى الجنس أسكن ] ولو أنهم أصاخوا السمع إلى منطق نوح عليه السلام .. لزال تعجبهم ولكنها العلة القديمة الجديدة: الحسد :

الحسد الذى يجعل الحسود - كما قيل - أشقى إنسان في الحياة :

لأنه يضيف إلى همه بنفسه .. همومه بسعادة الآخرين .. وما حققوه لأنفسهم من نجاح ..

فإذا كان المحسود رسولاً .. إذن .. فما أعمق الشقاء .. وما أدومه . لأن الحسود يعادى من هو في معية الله تعالى .. فهو معه بإكرامه وإنعامه أبدا .

**إنصاف الخصم :**

ولاحظ قيمة إنصاف الخصم تبدو في تبسيط المفسرين وجهة نظر المعارضين .. حتى يتاح فهمها لكل ذى عقل .. منطلقين من قوة الحق الذى يدافعون عنه .. واثقين بنصر الله والفتح .. هذا النصر الذى قد يتأخر قليلاً .. لكنه آت لا ريب فيه .

ولقد اتهم الإمام الغزالى بأنه حين بسط مذاهب خصومه .. ووضحها . بالغ في ذلك حتى اتهم بأنه خدم بتوضيحه تلك المذاهب كما لم يخدمها أصحابها .

ولكنها الثقة بالحق .. والإيمان بقيمة الإنصاف التي تحمل المنصف علي ركوب الصعب .. واصلاً في النهاية إلى ما يريد من إحقاق الحق وإبطال الباطل .

## مقتضيات الإيمان

**يقول القشيرى :**

[ عجبوا من كون شخص رسولاً .. ولم يعجبوا من كون الصنم شريكاً لله سبحانه]

وإذن .. فالعجب من تعجبهم .. فالعيب فيهم لا في الرسالة وكأن الآية الكريمة تقول لهم:

أو عجبتم مما لا يتعجب منه ؟ !!

إن الذى جعلتموه مانعاً من الإيمان مقتض له .. وداع إليه : فالذى جاءكم بالهدى:

رجل . منكم يعرفكم وتعرفونه .

جاءكم لينذركم عاقبة الكفر وما يترتب عليه من دمار .. ولتحصلوا ملكة التقوى.. الواصلة بكم إلى رحمة الله تعالى . وإذن فليس للداعى مصلحة شخصية فيما يدعو إليه.. لكن المصلحة مصلحتكم أنتم .. والتى تحصلونها بالإيمان .

**يقول النيسابورى :**

[ وهو ترتيب أنيق :

لأن المقصود من البعثة : الإنذار

والمقصود من الإنذار : التقوى

ومن التقوى : الفوز برحمة الله ]

وفى الآية دليل [ على أنه تعالى لم يرد من المبعوث إليهم إلا التقوى والفوز بالجنة . دون الكفر والعذاب . وهذا يبطل رأى من قال : إنه تعالى خلقهم للعذاب والنار ]

*****

# الإلحاد

## يعيد نفسه !!

بعض الناس تستهويهم أموال جمعوها.. أو شهرة حققوها فيغترون. وعلى ركيزة من هذا الغرور يواجهون أصحاب الدعوات الذين لا يملكون المال ولا يبحثون عن الشهرة !

وقد ترخى لهم الحياة من حبالها فيكسبون جولات تضاعف من غرورهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعاً إزاء .. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ..

فإذا ما تحداهم المنطق السليم .. فأزرى بما يملكون .. وإذا ما أفلسوا في ميدان الجدل الحر المستنير .. كان العنف وسيلتهم إلى إسكات الصوت العالى ..وكان التجريح الشخصى سلاحهم كلما ظهرت حجة الحق اتضاحاً ..

ومثل هذا التضليل في مواجهة الحقائق التى تفرض نفسها .. يحتم علي القائد الحكيم أن يحسن تقدير الموقف .. ويختار أليق الوسائل الكفيلة بامتلاك زمام القوم من الداخل .. بالمنطق البسيط البليغ .. بعيداً عن الهجوم المماثل .. الذى يؤدى في النهاية إلى تصعيد الموقف على نحو يجعل من التذكير أمراً مستحيلاً ..

وهو ما فعله نوح عليه السلام .. إزاء هجوم قومه عليه .. فيما حكاه القرآن .

" يا قوم " :

ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون " .

إنه – عليه السلام – يكتفى برد التهمة عن نفسه .. بغض النظر عن خطايا القوم .. وما أكثرها . يردها بنفس القوة التي جاءته بها .

ذلك بأنه ينفى " ضلالة " واحدة غير معينة .. ونفى فرد غير معين .. نفى عام .. أو هكذا تقول قواعد اللغة .

وهذا النفى المؤكد لتهمة الضلال .. يتجه بالذهن تلقائيا ليرى بالنظرة المحايدة نوحاً عليه السلام في أقصى درجات الهداية .. حين اختاره رب العالمين رسولاً ناصحاً .. يبلغهم دعوة ربه علي أساس من علمه بأمور غابت عنهم جميعاً ..

وبدل أن يحتكموا إلى العقل الواعى .. ليخفف من حدة هذا الصراع .. يهربون من الميدان الواسع .. بعد أن تركوا من ورائهم أطفالهم الصغار - كما قال المفسرون - ليتحملوا عنهم عنف المقاومة عن طريق السخرية به ! .

وتلك حيلة العاجزين قديماً .. وحديثاً .. الذين تتخلى عنهم شجاعتهم الأدبية في ساعة العسرة . فيحتكمون إلى الصبية المشاغبين .. الذين يمكنونهم من الإنسحاب وراء ستار من سخرياتهم .. بعد أن هزموا أمام نفوسهم ! .

ويبدو أن التهمة العامة المتجهة إلى رسول الله نوح لم تكن جادة ..

لكن القوم يريدون بها حفنة من رماد يلقون بها عبر ناصح أمين .. لعل في هذا المشهد ما يهز ذاته . . في أعين الناس .. حين يبدو وقد زايله الوقار لحظة من زمان فتخف ثقة الناس به ..

وتلك حيلة أخرى تكشف نوايا هؤلاء الصبيان الكبار ! بقدر ما تبرز أقدار المصلحين لدى كل عين ترى .. وأذن تسمع .

ماذا حدث ؟

إن رسولهم يطرح قضية الرسالة والتوحيد .. فلماذا لا يحددون موقفهم منها ؟

لكن القوم - كما قلنا - ضحايا مادية عمياء .. تتخذ من المال إلها يعبد من دون الله .. ومن السلاح أداة لترويع الناس .. وتتنكر لكل مبادئ الإيمان .. ووسائل العلم اللازمة لترقية الحياة ..

ومادام نوح عليه السلام لم يؤت سعة من المال .. فقد حرم في نظرهم من جوهر العظمة .. ومن ثم لا يصلح أن يكون متحدثا باسمهم ..

وما قيمة الإنسان حتى يدعى الرسالة ؟ ! إنه - في نظرهم -مجردا من قوة المال.. فلا يصلح لتحمل أعباء الرسالة .. ولا تكفى مواهبة الذاتية ليكون همزة الوصل بين الأرض والسماء . يفهم ذلك من قوله تعالى :

**﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾** .

وهذه بعض " فضائل " الحضارة الحديثة . . التى تكفر بالإنسان كفراً يحرمه من ميزة الاتصال بالحق سبحانه وتعالى .. وقبل أن يرد القارئ العزيز يده في فمه تعجباً من هذا المنطق المنحرف المتصدى للواحدانية كأساس لحياة فاضلة .. نبادر فنقدم نموذجاً لهذا

التفكير في القرن العشرين ! ليزداد الناس إيماناً .. ويستيقن الذين أوتوا الكتاب بوحدة الشعور بين المبلطلين عبر الزمان المتطاول ..

ولكن تجارب الإنسانية الطويلة على كثرتها .. لم تكفكف من غلواء هذه الروح المعادية للإنسان .

والتي إن جاز لها أن تبرز في طفولة الحياة بين قوم نوح .. فحرام أن تدور في خاطر يعيش في القرن العشرين من ميلاد السيد المسيح .. وتدور باسم البحث العلمي النزيه .. جداً !!

يقول واحد من هؤلاء العلمانيين يضاهئ قول الذين كفروا من قبل :

١- إننى أومن أن ليس هناك من أديان تاريخية تنكرت في تعاليمها للعقل الإنسانى . وكرامة الإنسان أكثر من الأديان الوحدانية !!

٢- إن الأديان الوثنية كانت أخف شراً . وأكثر عقلانية من الأديان الوحدانية : فهى أقل شراً لأنها لم تكن تضطهد وتقتل الآخرين باسم آلهتها كما صنعت الأديان الوحدانية .

وهو موقف أكثر انسجاماً مع العلوم الطبيعية الحديثة التي تميل إلى رؤية مستويات عديد متباينة معقدة ينطوى عليها الكون .

٣- إن مساوئ الأديان وشرورها تزيد كثيراً عن خيرها - وإذا لم تستح فقل ما شئت وافعل ما شئت !!

وأغلب الظن أن هذا العقل الذى يتحدث عنه الكاتب وأن كرامة الإنسان : التى تذكرت لها أديان الوحدانية - !! هو ذلك العقل الذى كفر بمثله قوم نوح في صراعهم الطويل معه.. حتى لم يستطع رؤية وجه الحق في قضية التوحيد .. بينما هى نداء الفطرة.

والكرامة التى يتحدثون عنها وهى تلك الكرامة التي تستمد وجودها من المظهر المادى للإنسان متجاهلة قيمه الروحية وأثرها البعيد في الحياة ..

وماذا يقول الإنسان تلقاء منطق ينكر معلوماً من الدين ومن التاريخ بالضرورة ؟

كل ما يمكن أن يقال :

إنها دعوة إلى إخلاء السبيل .. كي تعب الغرائز من نعيم الحياة عبأ في ظل وثنية تفرد شراعها للريح .. ولو إلى كارثة .. ولو بات ملايين الناس على الطوي .. ما دام المترفون يستمتعون !

**وليت شعرى :**

أكان يظن قوم نوح أنه - بعد هذا العمر الطويل - سوف يتمخض رحم الحياة عن أناس يفلسفون آراءهم .. بل ويتباهون بها .. رغم تقدم العلوم الداعية التي فهم أوثق .. والداعية إلى الإيمان أساساً لنشاط الإنسان .

إنهم لا يؤمنون بالإنسان

والأمر الإلهى الحكيم يكشف عن القاعدة التي انطلق منها هذا الرأى الفاسد وهى :

## أنهم لا يؤمنون بالإنسان !!

وذلك قوله تعالى علي لسان نوح عليه السلام :

﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم** ﴾ ؟

وبهذا المنطق الفوى . . يتوارى منطق القوة خجلاً !!

لقد عجبوا أن جاءهم منذر منهم .. يذكرهم بما هو مركوز في أنفسهم من عناصر الخير . إذا هم أحسنوا الإصغاء وأفسحوا الطريق أمام هذه الفطرة لتقول كلمتها .. بل إن عجبهم يزداد لأن هذا النذير " منهم " .. من دمهم ولحمهم !

إنها إذن " عقدة الأجنبى " .. يرفضون بمقتضاها كل زعامة تنبت على أرضهم .. وكل قيادة تحاول انتشالهم .. فعقولهم مشغولة بالبحث عن قائد أجنبى .. من الشرق أو من الغرب ! وهيهات !

بل لعلهم يعتقدون أن مسافة الخلف بين بشر وآخر لا تتسع إلى حد أن يكون فيه واحد كنوح عليه السلام يتلقى الوحى .. بينما غيره يتلقى منه أوامره ..

فإذا أضيف إلى ذلك فقر الأول .. وغنى الثانى .. بلغ الإنكار مداه ..

وهم بذلك يرددون ما سبق أن أعلنه إبليس حين رفض السجود لآدم لأنه إنسان

﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق** ﴾ .

وعلى فرض أن الرسول بشر منهم .. فما وجه الغرابة ؟ إنه رجل يعرض دعوته عرضاً موضوعياً .. فعليهم أن يتدبروا .. والغريب حقاً أن يحدث العكس . بينما كل الدلائل تاخذ بأيديهم إلى الحق :

١- إنه نذير عريان .. يرى بحكم وجوده بين ظهرانيهم صوراً من الانحراف تجرهم إلى الهاوية .. فيحاول ردهم عنها ..

٢- وبذلك يتيح لهم - لو استبصروا - فرصة يحصلون بها ملكة التقوى . التي تمكنهم من تحديد مطالع الأحداث والحكم الصائب عليها .. حفاظاً على إمكاناتهم من الضياع .. وإمساكاً للبناء الاجتماعى أن يتهاوى تحت مطارق هذا الضلال .

٣- يمكن - لو تحقق ذلك - أن يعيشوا في كنف من رحمة الحق سبحانه فيفيض عليهم نعمة ظاهرة وباطنة ..

على أن كلمة " نذير " لا تشعر بالخوف .. قدر ما توحى بالحنان والعطف , فهو ناصح : يبصرهم بمسالك الهدى . ويقيم مزالق الردى ..

وهذه خاصية الأمانة التي تلزمهم أن يكونوا معه علي الطريق ..

**﴿ فبأى حديث بعد ا لله وآياته يؤمنون ﴾** .

ومن وراء السطور يلوح معنى مهم يلفت النظر :

فالقوم حتى الآن .. بعيدون عن رحمة الله .. وهم إذا آمنواب بالله يصبحون على رجائها ..

وإذن . فما يرفلون فيه من مباهج الدنيا .. وما يحلون به من قصور .. وجنات .. وعيون .. وزروع ونخيل .. كل أولئك ليس نعمة .. كماوأنه ليس برحمة . مهما حاول تجار اللذات أن يحسبوا ما هم فيه رحمة مهداه لهم دون غيرهم من الكادحين ..

لكن القوم " كذبوه " مع وضوح الدلائل .. وبهذا التكذيب صاروا قوماً عمين:

" أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علي رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون " .

**﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾**

ويقتضى العدل الإلهى إزاء هذا العناد أن يحكم حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية .. ليرسل السماء بماء منهمر .. لتبتلعهم أمواج محيط هائل يصبحون فيه طعاماً لحيتانه .

وليفسحوا الطريق أمام جيل آخر من الذين آمنوا معه يتحمل تبعات الرسالة .. ويمسك بيده عبقرية البناء .. بناء الحياة علي أساس من رضوان الله وتقواه .. فوق أنقاض جيل مترف .. شلت يمينه فلم تقو علي حمل الراية .. وعميت بصيرته . فلم ير شيئاً والشمس طالعة .. و لم فهم .. بينما الحجة أمامه قاطعة .

وبقي إغراق القوم مثلاً يضرب وحكاية تروى .. بياناً لعاقبة التكذيب بعد وضوح البرهان ..

مثلاً يقدمه الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل مكة الذين يتشدقون بأمثالهم تلقاءه .

وذلك في سورة الفرقان وفي قوله تعالى :

﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً** ﴾ .

وفى مقدمة الأمثال المضروبة .. هذه النهاية التي دمرت على قوم نوح وجودهم العابث .

* * *

# فى سورة يونس

المتأمل سورة يونس عليه السلام يحس بالزمن يمر بطيئاً ثقيلاً .فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام ..

الحق الواضح يرفع أسلحته .. أوقل أدلته العقلية والكونية يشد بها من أزر قضاياه .. بينما يزداد الباطل تشبثا بأهوائه .. وإصراره على الدفاع عن مواقفه التي سبق الحديث عنها في السور المكية وهى :

بشرية الرسول .. قضية البعث .. استعجال العذاب .. شفاعة الأصنام .. تشير إلى ذلك الآيات الكريمة :

**" أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم " ؟**

**" قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " .**

**" قال الذين لايرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله " .**

**" متى هذا الوعد إن كنتم صادقين " .**

**" ويستنبئونك أحق هو "**

**" ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله " .**

ثم تذكر السورة بعد ذلك من قصة نوح هذا الجانب الكاشف عن إصرار قومه على طغيانهم .. ثم توكله على الله سبحانه بعد أن أفرغ جهده في الدعوة إليه .

ومن ثم .. يجيء هذا الجانب من القصة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم وإنذاراً لقومه السائرين في إصرارهم علي سنن قوم نوح من قبلهم .. وتبياناً للتلازم البين .. بين الإصرار على الكفر رغم وضوح الدليل .. والهلاك .. في مقابل النجاة لمن رجع عن غيه كما بينت ذلك قصة قوم يونس :

**﴿ لما آمنوا .. كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .**

يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم :

**﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات ا لله.. فعلى ا لله توكلت .. فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على ا لله وأمرت أن أكون من المسلمين**

**.فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .**

إن الأمر بتلاوة قصة نوح عليه السلام هنا يعنى التشابه بين القوم أمس واليوم .. ليزداد الذين آمنوا إيماناً ..

يروى البخارى [ من حديث عن عطاء ] عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى:

" وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً " قال :

( هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموهـا بأسمائهم ففعلوا . فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانسلخ العلم . عبدت [1] ] فالموقف إذن واحد وهو يتطلب من أهل الإيمان أن يتأسوا بأخوة لهم آمنوا مع نوح عليه السلام .. فكسروا بإيمانهم كبرياء قوم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً .

**﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾**
[ النمل ٩١: ٩٢ ] .

فحين يأمره الحق سبحانه أن " يتلو " عليهم قصة نوح بمادة " التلاوة " دون القراءة مثلاً .. ليقرأ عليهم قراءة متتابعة مستعلية مهيمنة .

يواجه بالآيات متحدياً قومه الذين أجمعوا أمرهم ومن فوق ربوة عالية تهبط عليهم أوامر " أستاذ " معلم . ينهى اليهم توكله على الله القاهر فوق عباده .. وما يشى به ذلك من ثبات على الحق واعتزاز به .

**﴿واتل عليهم نبأ نوح إذا قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات ا لله فعلى ا لله توكلت ﴾ .**

**تمهيد :**

يتجاوب القرآن الكريم مع فطرة الإنسان فيؤنسها بما يثير فيها الرغبة في الطاعة ..

---

(١) قصص القرآن . ابن كثير .

وقصة نوح عليه السلام صورة من صور هذا التجاوب .. حين يكررها تعالى في مواطن كثيرة ..

ولا شك أن نقل الكلام – كما يقول المفسرون – من أسلوب إلى أسلوب يحقق ما يلي :

١- انشراح الصدور

٢- دفع الملال

٣- تسلية للرسول

٤- ثم عبرة للمعتبر

وهذا هو فعله تعالى مع النفوس السوية المنسجمة مع الحق الراغبة فيه .. بل المشوقة إليه .

أما قوم نوح عليه السلام فكانوا على خلاف ذلك .. ومن ثم يصارحهم بهذه الآيات الكريمة .. ليكونوا معه صرحاء

## لا مسوغ للملال

ولكن المفسرين – انطلاقا من معرفتهم بطبيعة الإنسان .. يكشفون عن أسباب الملال :

**يقول الرازى**

[ واعلم أن سبب الثقل أمران :

**أحدهما :**

أنه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

**والثانى :**

أن هؤلاء الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة . والطرائق الباطلة .

والغالب : أن من ألف طريقة في الدين . فإنه يثقل عليه أن يدعى إلى خلافها .. ويذكر له ركاكتها . فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء .. كانت أثقل وأشد كراهية .

فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد المذهب كانت النفرة أشد [١] .

**ويقول النيسابورى :**

[ لا شك أن من ألف طريقة. ويدعى إلى خلافهـا – ولا سيما إذا تكـرر الدعـاء – كان ذلك موجباً للتنفر والثقل .

وخاصة إذا كانت تلك الطريقة مقتضاة النفس والطبيعة الداعيتين إلى اللذة العاجلة].

ولكنه عليه السلام يرفض بكل إباء وشمم – فى حماية ربه تعالى – كـل مـا يـدل بـه القوم الكافرون مستغنيا بإيمانه عن كل ما يستجلبه الناس من عتـاد في مثـل هـذه المواقـف الحرجة .

إن كان كبر عليكم مقامى فيكم واعظاً .

إذا كنتم تفتحون صدوركم كل يوم لمقـالات السـوء تمـلأ سمعكـم .. وتوسـعون في مجالسكم لكل مغتاب ينهش الأعراض .. ويقطع ما أمر الله به أن يوصل ..

إذا كنتم تبحثون عن الفساق .. والمنـافقين .. وتصـادقون مـن يتملـق عواطفكـم .. ويقضى مصالحكم . ثم تغلقـون أبوابكـم دون الواعـظ الأمـين وتضيقـون ذرعـا بـه لأنـه يذكركم بعيوبكم ..ويقاضيكم أمام ضمائركم التي يجب أن تصحو من سباتها ..

وإذا كنت قد صرت . عندكم شخصاً غير مرغوب فيه ..

وإذا كانت قلوبكم تهفو إلى كل ما يدمر مصلحتها .. بينما تجفو النذير الداعـى إلى الحق .. فعلى الله توكلت .. ولم يبق إلا أن أعلنها صريحة مدوية :

لتكن المعركة بيننا منذ اليوم سافرة .. وعلى أرض مكشوفة .. بلا لف أو دوران ..

فاجمعوا أمركم واحزموه .. ثم افعلوا ماشئتم جميعاً .. ولا تمهلونى لحظة واحدة.

وبهذا المنطق القوى .. يبدو رسـول الله في أعـين القـوم فـوق رءوسـهم .. يسـفهم التراب .

وفي اللحظة الـتي يربـط فيهـا نفسـه بـا لله عـزَّ وجـلَّ يطـأ بقدميـه جباهـا لا تسـجد لله..ويفرغ من النفوس غروراً أملته كثرة العدد .. وبهرجة المناصب ..

---

(١) الرازى : تفسير يونس .

فإذا تخلت عن القوم شجاعتهم فلم تسعفهم بقبول هذا التحدى .. فـإن رسـول الله صلي الله عليه وسلم يقضى بمنطقه الصارم على كل بقية تستجمع أشتاتها المبعثرة :

**( فإن توليتم .. فما سألتكم من أجر ) .**

إذا خانتكم شجاعتكم فلم تنفذوا تهديدكم .. وهربتم من الميـدان مدبريـن . " فمـا سألتكم من أجر " أحزن عليه لو فاتنى ! و لم تقطعوا عنى معونه أبكى عليها .

## كل إناء بالذى فيه ينضح

إن شدة بغضكم لى تحملكم على إيذائى .

لكنى لا أقابل الشر بمثله .. وتلك هجيراى قديماً وحديثاً ]

( فعلى الله توكلت ) :

١- فـاجمعوا أمركـم .. اعزمـوا عليـه . وحصلـوا مـن الأسـباب مـا يعينكـم علـى إهلاكى.. واستنجدوا بشركائكم .

٢- وليكن تدبيركم هذا مكشوفاً

٣- ألقوا إلى ما استقر عليه رأيكم مفروغاً منه باتاً

٤- ولا تمهلون . وهكذا [ لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين ]

وكفى بالتوكل على الله زاداً .. يكفينا مئونة البحث عن مساعد مـن الشـرق .. أو من الغرب .

وكأنما يقول لهم : واجهت وحدى الريح العاصف .. عبر صحراء لا صديق فيها .. فإنّ زاد الإيمان وحده يملأ الفراغ .. ويؤنس الوحشة ..

بل إن توليكم يساوى الصفـر .. إذا قيـس بمعيـة الحـق سبحانه لعبـد يلجـأ إلى بابـه الكريم .

وإنك لتتأمل الآيات الكريمة فلا تسمع سوى صوت رسول الله نوح عليه السلام .. عالى النبرة ..

ثم لا تسمع هنا صوت قوم طالما تحرشوا به ساخرين ..

إن القوم يسكتون فلا ينطقون ..

ولم يكن نوح عليه السلام يملك السلاح المسكت ولم يكن معه العصبة الكافية لحروب القوم .. لكن روح التحدى المؤمن . وتحمل مسئولية الموقف كله ..

كل أولئك ضاعف الروح المعنوية لدى المؤمنين إلى حد ضَاءَلَ من غرور الكافرين فلم يجدوا غير كلمة التكذيب .

**لا مسوغ للإعراض .**

من أدلة ذلك أنى ما سألتكم من أجر .. ولو كان قليلاً . وكأنما يقول لهم .

أنا لا أخاف منكم بأى وجه من وجوه الخوف

أولاً : فلا أخاف أن يصلنى منكم شر ..

فعلى الله توكلت .

وثانيا : لا أخاف من قطع معونتكم عنى ..

[ **فإن توليت فما سألتكم من أجر** ] أىّ أجر وسواء عَلَىَّ : قبلتم أو رفضتم . فأنا فى غنى عنكم توكلاً على ربى .

وافعلوا ما بدا لكم .

فإنى فاعل ما أمر ربى .

**صراحة الداعية :**

﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [ يونس : ٧١ ]

وأنا أكتب هذه السطور تترامى إلى تصريحات " يلتسن " إنه يلوم ويشدد اللوم ناعياً على " الصرب " ما يفعلونه .. وفى نفس الوقت يقول :

ضرب الصرب بالصواريخ عمل عدوانى ؟!!

تماماً كما تقول أمريكا :

لابد من السلام !

ثم .. وفى نفس الوقت يوافق مجلس النواب هناك على أن القدس عاصمة اليهود الأبدية !

وهكذا ينافقون ..

ومن وراء النفاق تضيع القضية التي لم تجد من ينصرها .. أو هكذا يريدون . لكن منطق نوح عليه السلام هنا هو منطق الإسلام الصريح .. الواضح .. المحدد .. والذى يقول " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " اضرب على يد الظالم أولاً ..

فإذا لم يرتدع .. فكن مع المظلوم ضده .

ونوح عليه السلام كأنما يقول لهم : حددوا موقفكم من الدعوة بصراحة - لا يكن أمركم غامضاً ... .. لكنهم أعرضوا فأغرقوا في الماء .. بعدما غرقوا في بحور الضلال وإذا حان وقت القصاص .. فلات حين مناص !

## سهولة الهدم

وما أيسر كلمة الهدم ينطق بها غافل لا يلقى لها بالا .

( فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا. فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ) .

ورغم أن سياق الآيات يعبر عن حقائق ثابتة .. لكن التعبير عن النجاة هنا بالفعل "نجيناه " وهناك : " أنجيناه " يشير إلى حقيقة ذكرها " البقاعى " حين يقول :

" إظهاراً للقدرة في بيان الإعجاز . بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة . لما في ذلك من علو الطبقة في البلاغة .

لأنه ربما قال متعنت :

عند التحرى قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل في هذا القصص فلم يبق لها ألفاظ يعبر بها عن هذه المعانى حتى تأتى بمثل هذه القصة .. فأتى بها ثانياً إظهاراً لعجزه وقطعاً لحجته " .

وقد زيد هنا قوله تعالى " وجعلناهم خلائف " وصفاً للناجين . وجاء ذلك مساوٍ لما جاء في أول السورة كما يقول البقاعى :

نظراً إلى قوله تعالى في أول السورة :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [ يونس : ١٣ ] الآية .. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [ يونس : ١٤ ] ؟ . فلوح لهم بالإهلاك

إن ظلموا .. ثم أشار لهم في قصة نوح عليه السلام بكونهم أعلمهم أن الخلائف هم الناجون . الباقى ذكرهمُ "ذريتهم ". وقد تصدى " البقاعى"رحمه الله لبيان صور من الاختلاف بين الأساليب العارضة للقصة في سورتى الأعراف ويونس فقال باختصار :

" ختمت القصة في الأعراف بقوله " إنهم كانوا قوماً عمين " حيث صدرت عنهم تهمة الضلال متجهة إلى الرسول .. بينما هو أبرأ الناس منه .

وقد عبر في الأعراف عن الناجين " بالذى " وهو الأصل في باب الموصول ( والذين آمنوا معه ) .

وعبر في يونس بمن " ومن معه في الفلك " وهى التي تشمل العاقل وغيره ..

وبهذا الأسلوب المعجز ينتفى أن يكون هناك تكرار ... فكل كلمة مقصودة لذاتها..

ويكون ذلك التنويع في الأسلوب .. فنًّا في الأدب يكاد يكون تشريعا ينبغى الأحتفاء به .

فالحقائق التي يدعو إليها المصلحون . إذا عرضت مجردة ... جافة .. لا تثير في القلب ولعه بالجمال حيث كان . وعلى الداعين للفضيلة أن يعلموا أن الرذيلة حيث تعرض في ثوب جذاب تشد الناس إليها .. بينما تفشل الدعوة إلى فضيلة عابسة يدعو إليها أناس يهددون بالويل والثبور وعظائم الأمور ! .

ولا يعنى ذلك أبدا تراجعا في ميدان الدعوة .. بقدر ما هو إصرار علي تبيلغ الحقائق في ثوب جميل..

ونعود فنبرز معنى التلاوة الذى يقف في مستهل الآية الكريمة مؤكدا ضرورة اعتزاز الدعاه بأنفسهم الغنية بكتاب الله سبحانه وتعالى .. " ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين " (١) .

وهو المعنى البارز في قصة نوح عليه السلام هنا .. حين يلفت الحق سبحانه نظر كل مؤمن إلى أن يتلو القرآن .. أن تقع بـه سبع سماوات فوق كل رأس تفخر بالمال . أو المنصب .. أو العصبية ..

ولو أن أهل الدين صانوه صانهم        ولو عظموه في النفوس لعظما

---

(١) آل عمران ١٣٩ .

# فى سورة هود

يقول الله تعالى في سورة هود :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ إِنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مّبِينٌ . أَن لاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ اللّهَ إِنّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلأُ الّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاّ بَشَراً مّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتّبَعَكَ إِلاّ الّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرّأْيِ وَمَا نَرَىَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيّنَةٍ مّن رّبّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مّنْ عِندِهِ فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

وَيَقَوْمِ لآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الّذِينَ آمَنُوَاْ إِنّهُمْ مّلاَقُوا رَبّهِمْ وَلَـَكِنّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ .

وَيَقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتّهُمْ أَفَلاَ تَذَكّرُونَ . وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلّذِينَ تَزْدَرِيَ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيَ أَنْفُسِهِمْ إِنّيَ إِذاً لّمِنَ الظّالِمِينَ ﴾ [٢٥ : ٣١ ]

## القلة المؤمنة والكثرة الباغية

إذا كان الله عزَّ وجلَّ يقول لرسوله في سورة الأعراف :

" **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه** " .

فإنه سبحانه يخاطبه في سورة هود قائلاً :

﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير وا لله على كل شيء وكيل** ﴾

وهنا .. نستبين عنف المقاومة في هذه المرحلة إلى درجة يقال له بسببها :

﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك** ﴾

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سلك إلى قلوبهم كل سبيل فلم يؤمنوا. يبدو كمن يوشك أن تفتر جذوته . وتتراخى قبضته فى مواجهة عناد يتأبى علي الانقياد.. من قبل أناس قد يسلم - إذا أسلموا - خلق كثير .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يضع بين يدية جانباً من تجربة الإنسانية في أول مجتمع عرفته الحياه ..

وكيف وقف أخوه نوح عليه السلام يتحدى الكثرة الباغية .. ويمرغ في التراب كل ناصية كاذبة خاطئة . وعند ساعة الصفر .. يجيء العقاب من لدن الحق سبحانه .. وينتهى به مكر الجبارين في الأرض . وتبقى المبادئ العالية .. ثم تصفو الحياة لجند الله .. بعد رحلة من الأسى كادت أن تمنع الغرس الطيب أن ينمو .. هذا الغرس الذى يتأهب اليوم للازدهار .. يعجب الزراع .. غيظ الله به الكفار .

وتبدو صورة القلة المؤمنة .. علي أكمل ما تكون الوحدة .. وأتم ما يكون الترابط بين القائد وجنوده . هذه الوحدة التي أذهلت الكثرة المدلة بعددها . فراحت تكيل التهم جزافاً . في محاولة لتجريح الأشخاص .. وضرب العقيدة التي جمعتهم على قلب رجل واحد ..

وفي مقام المقارنة بين ما ذكر هنا وما سبق في سورة الأعراف . يمكن ملاحظة أن وصف الكفر المضمر فى سورة الأعراف يبرز هنا ( فقال الملأ الذين كفروا ) تسجيلاً عليهم .. ودمغاً لهم بالعدوان .. وتتضح لذلك صورتهم في الذهن .. حيث سول لهم كفرهم أن يشنوا حملة لا هوادة فيها علي أتباع نوح .. الذين كانوا أتباعهم من قبل ! .

ويطول الجدل بينهم وبين رسولهم .. ثم ينتهى بإعلان جهلهم دون هؤلاء الأتباع الذين يتمتعون اليوم بصحتهم النفسية في ظل إيمانهم بالحق سبحانه وتعالى .. وبين هذه البداية وتلك النهاية نحاول أن نستشف ما وراء السطور التي يحكيها القرآن الكريم عنهم.. ويبرز لونا من التهريج يتستر من ورائه المضللون في كل زمان .. كلما أعوزتهم الحيل .. وسبقهم المخلصون إلى الله تعالى :

لقد ذكر " البقاعى " أن قوله تعالى في سورة الأعراف : " عذاب يوم عظيم " يوهم إسناد العظم إلي اليوم لا إلى العذاب ..

وهى لمسة يحس القلب عندها بوادر خطر وشيك الوقوع ..

فلما تمادى القوم في غيهم .. قال سبحانه في سورة هود : " **عذاب يوم أليم** " وتحس الأعصاب كأنما هى تحترق به قبل أن يتلقاها ..

ويؤكد التعبير بالفاء في قوله تعالى : " فقال الملأ . عن سرعة نفورهم من الحق . ورفضهم تفهمه بغية الوصول إلى قرار ..

وهذا التسرع في التفلت من تبعات الحق أفضى بهم إلى التـورط في ذكـر صـور مـن التوكيد وهم يجادلون رسول الله نوح عليه السلام :

تماماً كهذا الرجل البخيل عندما يريد ذم غيره بالبخل :

إنه سوف يقول :

إنه بخيل جداً .. جدا ...

ولن يكتفى بتأكيد واحد .. في محاولة لتصويره علي نحو من البخل أشد منه .

والرجل الذى يعرف من نفسه قطع حبال المودة بين الأصدقاء .. حينما يريد الصـاق هذه التهمة بآخر ... لا يتورع أن يقول :

إنه يفسد العلاقة بين أمتين .. أو دولتين ! .

محاولا بذلك صرف الذهن عن حجم فتنته إلى عمق آخر لها بعيد .. يرتكبه غيره من الناس !

وهكذا كان قوم نوح حيني قالوا كما حكى القرآن الكريم :

**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا .. بادى الرأى .**

**وما نرى لكم علينا من فضل**

**بل نظنكم كاذبين** أى : أننا نرى بالعين المجردة صدق ما نقول : فالأتبا ع وحدهـم . هم الأراذل . دون غيرهم .

وما نرى لكم علينا من فضل .. أى فضل .. مهما كان ضئيلاً .

وكأنما لم يسعفهم المنطق أن يقولوا : بل أنتم كاذبون .. من حيـث كـانت أنفسـهم بين جنوبهم تعقد الألسنة فلا تنطق بها .بمعنى أنهم غـير مقتنعـين بـأنهم كـاذبون .. حتـى اختاروا التعبير بالظن : " بل نظنكم كاذبين " .

وإذا كان الكذب هو مخالفة الواقع .. فإن دعوى الإيمـان لم تطـابق نفـوس أتبـا ع لا يفكرون .. بل إنهـم لا يفهمـون .. وإنمـا جـاء إيمـانهم المزعـوم كراهـاً .. وتكلفـاً بغيـة الحصول علي لذات الدنيا .

والفرار من وطأة عمل لا يطيقونه ! وهكذا قال الملأ من الوم :

وكأنما يقولون :

لو كان إيمانكم عن اقتناع .. وكان اجتماعكم حول مبدأ .. لأضاف إليكم ذلك فضلاً جديداً علينا . لكن الواقع يلغى أن تكون لكم ميزة علينا بدعوى الإيمان .

إن القوم قد أعماهم الحقد .. وما داموا لم يروا الفقراء أمامهم في ثروة أربى .. وعمارات أرفع . وما داموا لم يجدوا الخدم الكثير والثوب الحرير . فليس هناك متعه ولا غنى ولا فكر ولا إرادة . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

إنهم لا يسمعون عن تلك المتعة التي يحسها المتقون في ظل الإيمان . ولو لم يكن لهم أهل .. ولا يحسون بتلك القوة التى يستشعرها المتقون وإن كانوا لا يفيئون إلى عشيرة !!

إنهم يأكلون كما تأكل الأنعام .. هناك في مرتعهم الآسن ..ولا يحلقون في الآفاق العالية . التي تمنحهم من لدنها أنس الروح . وقوة الإرادة وصحة الحكم علي الناس والأحداث .. بمثل هذه البصيرة المتفتحة التي يقيمها اليقين في النفوس ..البصيرة التي بها سبقهم الفقراء إلى اعتناق الحق شرعة ومنهاجاً .

ولقد كانت مهاتراتهم تلك كما يقول ابن كثير في تفسيره : " دليل جهلهم وقلة علمهم وعقلهم : فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه .

فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل . بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء .

والذين يأبونه هم الأراذل . ولو كانوا أغنياء . ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس .

والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته . كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم قال هرقل فيما قال :

أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

قال : بل ضعفاؤهم .

---

(١) الزخرف : ٢٣ .

فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وقولهم بادى الرأى ليس بمذمة ولا عيب :

فإن الحق إذا وضح لا يبقى للرأى ولا للفكر مجال .. بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء . بل لا يفكر هنا إلا غبى أو عيى "

وهكذا يزود الإيمان جنده بصفاء في الروح يستقيم به تصورهم للكون والحياة .. بينما يعيش المترفون في عزلة عن الحقائق . حين يغذيهم النعيم الذي يدور بهم حول أنفسهم وحدها .. فلا يفكرون إلا فيها .. في الوقت الذى يحمل الإيمان أتباعه على خوض معركة الحياة .. فيعطون ويأخذون وفى مقدمة ما يأخذون .. حصيلة هذا التفاعل مع الحياة التى تمكنهم من سلامة التصور ، ثم صحة الحكم ، ودقة العمل .. فالنصر على الأعداء .. وفى هذا المعنى يقول بعض العلماء :

إن الضعف السامى كثيراً ما أثر فى مجرى الحياة مالم تؤثره القوى السافلة :

وقديماً أثر اليونان في الرومان . وهم مغلوبون لهم . وأثر المسيحيون المستضعفون في الرومان الجبابرة . وأثر المسلمون المقهورون في التتار القاهرين حتى حولوهم إلى معسكرهم . فصاروا من خيار أجنادهم .

ولهذا المعنى يعلن الله تعالى إرادته في الأدالة للضعف السامى من القوة الغاشمة دائماً .

ويجعل ذلك قانوناً من قوانين الحياة فيقول :

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥ ]

ذلك : لأن القوة الغاشمة دائماً تحمل أربابها علي الطغيان والبطش . ونسيان الأوضاع التى خلق الله تعالى الحياة على معاييرها . وتحمل على نسيان يد الله والعمى عن رؤيتها . بل تحمل علي محاربتها والجرأة عليها .

وعندما يصل مد الطغيان إلى غايته هذه يمكر الله . ويديل منه :

" **ولله جنود السموات والأرض** " .

أما الضعف السامى فيجعل المستضعفين محل الانفعال بالحوادث . وتلقيها بتذوق كامل لها وإدراك حقيقى لآثارها .

وهذا الانفعـال والتـذوق والإدراك الحقيقـى للأمـور هـى العوامـل الـتي تنتـج صحـة الأحكام .

ولذلك كان المستضعفون ذوو العقائد الصالحة أصح من الأقوياء المتسـلطين الغـاشمين رأياً . وأسلم قلوبا وأعرف بشـئون الخلافـة علـى الأرض ووراثـة مقاليدهـا .. ومـن هنـا ينفذون إلى السلطة والأدلة من الطغاه بعون الله " أ . هـ .

ألم تر كيف كانت معاناة الحياة سبيلاً إلى الوقوف علي أسرارها ؟

وكيف عزل النعيم المفرط أصحابة فلم يستبينوا قوانينها وبالتالى حرموا لذة المعرفة .. ونعمة الوصول : وهنا يتضح مرمى قوله صلى الله عليه وسلم :

" شرار أمتى الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون مـن الطعـام ألوانـاً . ويلبسـون من الثياب ألوانا . ويركبون من الدواب ألوانا .. يتشدقون في الكلام " [١] .

إن الغرائز هنا تندفع معصوبة الأعين .. نحو غاية واحدة .. ومن ثم فهـى أقـوى مـن العقل الذى تختلف غاياته فيضعف تأثيره . ولقد وقف نوح عليه السلام مـع القلـة المؤمنـة التي منحته عقولها فظفرت معه بالإيمان .

بينما تحدرت بالملأ غرائز الحيوان من فوق هذه القمة العليا .. فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد وبعد فوات الأوان .

إن الفلاح الذى يصاحب البذرة حتى تستوى علي سوقها .. والتاجر الـذى يضـرب في الأرض فيخسر تارة ويكسب تارة أخرى .. وصاحب الحرفة حين يعانى بأسـاء الحيـاة وضراءها .. ورب الأسرة الذى تشرق به الهمـوم وتغـرب .. كـل أولئـك يتعـاملون مـع الحياة الحلوة والمرة !

فيقفون علي حقيقتها ويلمسـون سـنة الله في تصريـف الأمـور علـى نحـو يزكـى في أفئدتهم اليقين.. بينما تتحول عصارة النعيم في الجسوم المترهلة سكراً يخدر مداركهم فـلا يبصرون !

ومن ثـم .. يشـكل هـؤلاء المسـتضعفون القـوة المنتجـة .. وعلـى سـواعدهم يـدور دولاب العمل . وكل لمحاولة للنيل منهم إنما هى تعطيل وتضليل ينتهـى بـه نشـاط المجتمـع كله.

---

[illegible]

ومن أجل ذلك يتدخل الرسول عليه السلام يدافع عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ضد العصبة الكافرة التي تتحزب في محاولة للتخريب .. تعكس نفوسهم الخاوية الضعيفة .

قال يا قوم :

**﴿ أرأيتم إن كنت علي بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على ا لله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من ا لله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾**

وبهذا المنطق الصارم تتضح الحقائق الآتية .

١- أن دلائل الإيمان واضحه المعالم لكل راغب فيها وهى منتصبة في وعيكم .. لكن القلوب تنفر منها كارهة أن تتحمل تبعاتها تحت ضغط مناعم الحياة .

وحينئذ فلا مجال لحملكم علي الإيمان بها في وقت تعطلت فيه أجهزة الاستقبال .. وهى القلوب الوالغة في حمأة النعيم .

٢- لو كان يسالهم على التبلغ أجراً لكان هذا الفرار ما يسوغه .. لكنه يطلب الأجر من الله وحده . فلم يبق لهم مسوغ كاف يصدهم عن سبيل الله .

٣- الحقيقة التي تعلن عن نفسها أنكم جميعاً :

جاهلون !! أما هؤلاء المؤمنون المستبصرون .. فهم معى .. وأنا معهم .. على طريق النضال . وفى صحبة وعى كاشف .

إنهم ركائز الدعوة الجديدة ولن أتخلى عنهم أبدا لحساب أنفس جاهلة .. تحاول حملى علي طردهم .. بل إننى لا أستطيع ذلك !

٤- إنها أخوة الإيمان تجمعنا الآن .. وهؤلاء الناس ضيوف حول مأدبة الله سبحانه.. فهل أملك تسريحهم ؟ !.

وإذا ملكت .. فلن تستطيع قوة مهما كانت أن تدفع عنى بأس الله إن جاءنى

## مزاعم المبطلين تتهاوى

## ويبقى الإيمان سيد الموقف

**﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك . ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما في أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾ .**

**قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .**

**قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾ .**

في رأى زعيم أوربى :

أن على القائد – لكى يستقطب الجماهير حوله – أن يحيط نفسه بهالة من الغموض دائماً .

فلا يعرف أتباعه متى يغضب ؟ .. ومتى يرضى ؟ .. وإلى أين يسير ؟

وفى غمرة من هذا العماء المضروب حوله .. يمكن له أن يجمع القطيع الشارد .. الذى يظل مشدوداً إليه .. رهباً من شره الذى لا يعرف ميقاته ورغباً في خيره الذى يمكن أن يتنزل عليهم من سمائه العالية ؟!

وندع هذا التصور الهزيل يتوارى خجلاً .. ونحن نطالع نهج المصلحين في مجال العقيدة والاخلاق :

إنهم يطلعون من أفقهم الواسع نجوماً زاهرة .. يستوى في رؤيتها الواجدون والفاقدون .. على نحو ما يشير القائل :

النجوم التي تراها أراها
حين تخفى .. وعندما تتوقد
قمر واحد يطل علينا
وعلى الكوخ والبناء الموطد

وبهذا الضوء تتبدد هذه الهالة المصطنعة .. وينقشع الضباب الكاذب .. لتبدو الشخصية كما خلقها الله تعالى .. بريئة من كل إضافة تخلع عليها امتيازات خاصة لا تستحقها ..

وإذا كان ولابد من امتياز .. فهو بمقدار ما تحقق الدعوة من انتصارات في واقع الناس .

وبمثل هذا المنهج الواضح يواجه نوح عليه السلام قومه كما تشير الآيات الكريمة .. موضوع حديثنا الآن :

إنه لا يقول لهم : عندى خزائن الله التي تشترى بها رقاب الناس .. كما وأنه لا يدعى امتداد علمه ليتخطى الحدود فيكشف الغيب .. ومن ثم فهو ينفى أنه صاحب علم يلاحقهم أينما كانوا .. ويمسك بتلابيبهم لحسابه دائماً !

وبادئ ذى بدء .. يستبعد كل مالا ضرورة له في بناء شخصية الإنسان .. كما أنه ليس لازما لنجاح الداعية في دعوته ..

وفوق ذلك فإن ما ينفيه هنا .. رد لتهمهم الثلاث آنفاً .

كما يقول صاحب المنار :

( وهذه الثلاث التي نفاها نوح عليه السلام عن نفسه . هى التي كان يظن المشركون من قومه . وممن بعدهم أن ثبوتها لازم لمن كان نبياً مرسلاً من الله تعالى إن صحت دعواه . وإلا كان كسائر البشر لا فضل له عليهم .

ومن ثم كان نفياً متضمنا لرد شبهة حجتهم الثالثة .

فالآية الكريمة بهذا الفهم – كما جاء في حاشية الجمل :

رد لقولهم : وما نرى لكم علينا من فضل كالمال . وقوله : ولا أعلم الغيب : معطوف على عندى خزائن الله أى :

ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب كما قال الشارح . وهذا رد لقولهم :

« **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** » . أى في ظاهر حالهم وأول فكرهم.. وفى الباطن لم يتبعوك . فقال : إنما أعول على الظاهر لأنى لا أعلم الغيب فأحكم به .

ولا أقول : «إنى ملك» : رد لقولهم : «ما نراك إلا بشراً مثلنا» . فكأنه قال : أنا لم أدع الملكية حتى تقولوا ، ما نراك إلا بشراً مثلنا ] .

وفى نفية عليه السلام لهذه الأمور الثلاثة .. إدانة لكل ناصية كاذبة تدعيها لنفسها في المجتمع في محاولات للتحكم في رقاب الناس .. وفى إرادتهم أيضاً .

ثم هو في ذات الوقت يرسم التصور المؤمن لأقدار الناس ..

هذا التصور القائم على خصائص النفس الإنسانية المنبعثة من إيمانها بربها .. دون تقدير لعوارض الجاه والسلطان ..

وهو تصور يختلف عن تلك النظرة المترفة ، والتي يتميز بها المشركون الماديون .

وبطبيعة الحال .. لابد من تغير الأحكام المبنية على هذا التصور :

فإذا كان الملحدون لا يعترفون بالفقراء في المجتمع .. وتزدريهم أعينهم فلا تثبت عليها .. بل وتلاحقهم بالتهم الباطلة المغرضة ..

فإن رسول الله نوح عليه السلام يضيف وجوده لهؤلاء المتهمين الأبرياء . وينحاز إليهم في جبهة عريضة متماسكة ضد كل محاولة لزعزعة الثقة .. وتفتيت الوحدة ..

ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً .. الله أعلم بما في أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين .

### لقد قال لهم بالأمس :

إن قوة ما .. لن تستطيع حمايتى من يد القوة الكبرى .. إذا أنا طردتهم .. وفى ذلك إزراء بالملأ حين يتصورون أنفسهم في المجتمع قوته الأولى والأخيرة .

ثم هو اليوم يصدمهم بالحقيقة الواضحة :

لن أجاريكم في الحكم على هؤلاء .. " الأراذل " في زعمكم .. بأنهم محرومون من الخير .. بل إنهم معدن هذا الخير .. وتربته الخصيبة .. وإذا كان منظاركم الملون بأهوائكم يريكموهم مجردين من كل فضيلة .. فإنى بعين الإيمان أرى نماذج فريدة .. صالحة .. منحوا الدعوة حياتهم .. فمنحتهم من لدنها وجوداً آخر .. صاروا به خلقاً جديداً .. فوق ما يتصور المترفون .

إنى إذا لمن الظالمين .. إذا رأيت الشمس في رائعة النهار .. ثم أنكرتها .

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلي دليل

وما دام الأمر كذلك .. فلم لا يفكرون لعلهم أن يهتدوا ؟ .

إنهم يطالعون ملامح الحق الواضح .. يفرد ذراعيه لو فتحوا أبصارهم عليه .. وأصاخوا السمع إليه .

بيد أنهم لم يفعلوا .. ولن يفعلوا ..

فمن وراء هذا الموقف المتصلب عقدته المعروفة : أن الخير يسير دائماً في ركاب الغنى.. بينما الفقر يمشى دائماً في العراء .

وهكذا يفكر المترفون في غيبة الإيمان :

فعندما يرفض الماديون أن يؤمنوا بإله حكيم قادر .. يعدون أنفسهم لعبادة الذات وحدها .. وتقديس مصالحها .. وبالتالى : للوقوف بالمرصاد لكل حركة إصلاحية تحاول أن تضع حداً لهذا المتاع ..

وهو وضع شاذ يتنكر لمنطق الفطرة السليمة .. فهو يجعلهم أشد حفاظاً على كل ما يهم ذواتهم .. ولو كان ذلك علي حساب أناس يموتون تحت أبصارهم جوعاً .

على أن حصر الإنسان نفسه في هموم ذاته ونشد أن مصالحها وحدها .. دون توقع لثواب أو عقاب .. يفرض عليه إلى أن يأخذ الدنيا بالطول والعرض .. في ظل أنانية بغيضه. متسلحة بنوع من " البلطجة " أسلوباً تخاطب به المصلحين . رافضة كل قيمة إنسانية رفيعة . وهكذا كان قوم نوح عليه السلام :

لقد كان إعلانه براءة المستضعفين من تهمتهم .. وإشارته إلى أنهم بإيمانهم مصدر لكل خير عكس ما يفهمون .. وأن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل يد تحاول أن تمتد إليهم بأذى .

كان ذلك إيذانا بغروب ذلك النعيم الذى يتجشأونه .. حين يستعد هذا الرعيل المؤمن لأن ياخذ مكانه تحت الشمس .. ويحرك همته لتقتطف من خيرات حسان .. كلها من عمل يده .

وهنا يجيء المنطق غشوماً يقطع كل أمل في مواصلة الحديث :

**﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .**

" يا نوح " هكذا بالاسم المجرد من كل عاطفة .. بينما يدعوهم " يا قوم " .. ويناديهم بعنوان الأخوة .. نداء الواثق المطمئن .. الثابت في مكانه فلا يزل في مقاله .

وعنف المنطق يكون أحياناً وسيلة العاجزين يغطون به فشلهم الذريع .. وليوارى حمرة الخجل . إن كانت بقيت فيهم دماء تسرى .

وإذا .. فالأمر في تقديرهم ليس أمر اقناع أو اقتناع .. لكنها شهوة تدور في أنفسهم تملى لهم .. وتسوغ كل انحراف . وكل عدوان وإذا عرفنا أن قوم نوح عليه السلام .. كانوا حينئذ سكان الدنيا .. وأن دعوته ظلت في صحبة الحياة ألف سنة إلا خمسين عاماً. أمكن لنا تصور عمق التكذيب .. وشراسة المقاومة ..

وهو معنى بارز في قوم نوح عليه السلام .. يتفردون به .. دون أمم الأرض جميعاً : مثلاً :

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بشير ونذير مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَاَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [ الأحزاب ٤٥ ] .

ففى قومه استعداد للخير استحقوا به البشرى . أما بالنسبة لقوم نوح :

فليس هناك بارقة من أمل . فالرأى العام حينئذ مضلل مخادع مصر على التمرد والعصيان .. وباستثناء القلة المؤمنة التى وسعتها السفينة .. فالكل في حق العناد سواء .

ومن هنا ظهر معنى التخويف والنذارة بالنسبة لهم .. واختفت البشارة من أفق أناس لم يستعدوا لها ..

نفهم ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

**" إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك " .**

**" إن أنا إلا نذير مبين "**

**" إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت : .**

**" فانظر كيف كان عاقبة المنذرين "**

**" إنى لكم نذير مبين " .**

**" أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم " .**

ويكفى دليلاً على شيوع روح العصيان .. أن زوج نوح عليه السلام- كما يقول المفسرون- لم تكن تكتفى بإعلان كفرها بما جاء به .

بل كانت تدل على عواراته .. وهو المقصود بالخيانة في قوله تعالى :

**﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرَأَةَ نُوحٍ وَامرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَينِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغنِيَا عَنهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيئاً وَقِيلَ ادخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾** [ التحريم : ١٠ ] .

ويروى ابن كثير في إصرار القوم على الكفر :

" وكانوا كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان . بمحاربته ومخالفته .

وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه :

لا تؤمن بنوح أبدا ما عاش . ودائماً ما بقى " .

وتمتد الروح العدوانية فتعبر الأزمان .. لتكون معهم في الموقف .. وبين يدى الحق سبحانه وتعالى .. حيث يكذبون في وقت لا يجوز فيه الكذب ..

جاء في صحيح البخارى :

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :

يجىء نوح عليه السلام وأمته . فيقول الله عزَّ وجلَّ . هل بلغت ؟

فيقول : نعم . أى رب .

فيقول لأمته : هل بلغكم ؟

فيقولون : لا .. ما جاءنا نبى !!

فيقول لنوح : من يشهد لك ؟

فيقول : محمد وأمته .. فتشهد أنه بلغ .

وهو قوله تعالى :

**﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيداً﴾** [ البقرة : ١٤٣ ] .

وموقف قوم نوح عليه السلام هو المفهوم من قوله تعالى :

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [ الفرقان : ٧٧ ] .

وإذا كان القوم في شك من وعد نوح عليه السلام بنزول العذاب . كما يستفاد من قولهم " إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصادِقِينَ " فإنه عليه السلام يقف بهم مباشرة أمام الله سبحانه . القادر وحده على إتيان العذاب وقتما يشاء .

مجرداً نفسه مرة أخرى من كل حول..واقفاً بها عند حدود بشريته لا يتعداها..

﴿ **قال إنما يأتيكم به ا لله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان ا لله يريد أن يغويكم** ﴾

ويشير الجواب إلى حقائق بارزة .. لمن كان له قلب :

١- العذاب المتوعد به محتمل الوقوع .

٢- وهو إذا وقع .. فلا مفر منه .

٣- ثم هو مرتبط بمشيئة الخالق وحده سبحانه

٤- كما أن أسباب الهداية المنجية - هى أيضاً - منه وحده تعالى .

٥- .. ولا ينفعكم إرشادى إذا لم تلم بكم الأسباب .

وبهذا الخطاب الفاصل .. يوصد أمامهم باب جدل عقيم .. لا يريدون به سوي إضاعة الوقت والجهد معاً ..

ثم لتكون الكلمة الأخيرة لعقاب صارم .. تضيع في عنفوانه أصوات طالما صدت عن سبيل الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

* * *

## الـهدوء
## الذى يسبق العاصفة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ . وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ [1] بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ . وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ . وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

– لم تكن هناك عداوة قائمة بين الإسلام والأغنياء : لكنـه فقـط يتدخـل في الوقـت المناسب .. كلما انحرفت بالثروات أهواء الناس . ليجعل منها دعامة وطنية .. يستوى في الانتفاع بها الفرد والمجموع .

وكما أن الأغنياء لم يخلقوا الثروة .. وكانت الـثروة لديهـم أمانـة عندهـم مـن لـدن خالقها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى .. فمن الطبيعى إذا .. أن توضع في مصارفها .. وصولاً إلى أهداف رسمها الخالق سبحانه . فـالغنى .. خليفـة .. لله في مالـه . وتتقاضـاه خلافته أن يكون فيها رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من مسئولية والتزام .. وصبر وتضحية

ومن الرجولة أن ينأى بنفسه عن الترف .. وملاحقة لذاذات العيش في كل مكان ..

لأن ذلك فضلاً عن كونه معصية للخالق .. ظلم للنفس تتعرض به لآفات الكـذب.. والنفاق .. والجبن . ما دام ذلك يبقى عليها والغة في عين حمئة من لذاتها الدنيئة المنحلة !

فإذا حارب الإسلام مظاهر الترف .. فلأجل أن يصون طاقات الإنسان أن تتبـدد في غير مجالاتها .. وفراراً بها من آفات اجتماعية وبيلة تميت الرجولة .. فلا تجد الفرد الصالح الذى تصوغ من أمثاله أمة تتصدى لكل دخيل يريد استعمارها ..

واقرأ معى قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [ هود ١١٦ ] .

---

(١) لا تحزن ولا تشك .

إن الرجل الذى يستدبر القبلة التي ارتضاها الله سبحانه ، ليولى وجهة شطر مظاهر الترف ، يتبعها ، ويعبدها من دون الله ، بحيث تصبح المتعة الفردية شيطاناً يتبع خطواته في كل سبيل ، وصنما يعفر له الجبهة العالية .

هذا الرجل الذى " يتبع " لذته ويغرق فيها ، ليرسب هناك في القاع البعيد ، مستعد في نفس الوقت أن يبيع وطنه ، بل وأن تخلى عن دينه !

لأنه أولاً : غير مستعد للتفريط في متعته .

وثانياً : لأنه من خلال أمواجها المتراكبة ، لا يرى إلا هى ، وهو في عمى عن لك دلائل اليقين التي تشده الى الله سبحانه وتعالى .

وإذا .. فمن السهل عليه أن يكذب ، ويجحد الشمس الطالعة ، في الوقت الذى يصف لسانه الكذب جاحداً رسالات الله . أرأيت كيف شدد الإسلام النكير، لا على الغنى أو الأغنياء ، بل على هذه الشهوة التي تتخذ لها في أعماق المرء متكأ ، فتسير به في كل طريق ، إلا طريق الحق ، وتتجه به نحو كل غاية ، إلا غاية تقترب به من الحق سبحانه وتعالى ؟

ولقد عبد المترفون من قوم نوح ذواتهم ، وغرقوا معها في بحر لا ساحل له ، فتخلقوا برذائل الترف ، وعلى رأسها افتراء الكذب على الله ، ورمى رسولهم الناصح الأمين بما هو منه براء :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ . قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾.

وسواء أكانت الآية متعلقة بنوح عليه السلام وقومه ، أو بمحمد عليه السلام وقومه، فإنها على أى حال تكشف عن طبيعة المترفين حيثما كانوا في تصديهم للحق كلما أعوزتهم الحيل :

فكلما اشتدت قبضة الحق على الرقاب ، وحين يسقط القناع المزيف عن أنفس تعبد اللذة من دون الله .

فإن الباطل الذى يفقد كل خطوط دفاعة المستميت يرمى بورقته الأخيرة فيصم بالكذب دعوة الصدق الخالص ، هكذا اجمالاً ، وبدون تفصيل يعوزه الدليل .

وربما ظن أن ذلك الإجراء من شأنه خلق جو من الشك ، إن لم يصب من الدعوة مقتلا ، فإنه – على الأقل – ربما زعزع أركان الإيمان في صدور بنيه .

وعندئذ يكشف الحق عن زيف التهمة . ويتقدم بخطى الواثق ليتحمل مسئوليته إزاء الافتراء المزعوم .

وفى لحظة أخيرة يدفع المبطلون بما بقى لديهم من ظلم وافتراء لكن الداعى يدير لهم ظهرة كلية ، ليقبل بنفسه على الله سبحانه وتعالى ، معلنا آداءّ الأمانة ، وعصيان الأمة ، ويمتد حبل النجاة .. ويجىء نصر الله والفتح ، بالطريقة التى يشاؤها سبحانه وتعالى .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ . فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ .

إن الحبل الذى مده نوح عليه السلام إليهم ، فقطعوه ، يوشك اليوم أن يطوق أعناقهم ، ثم يرسب معهم في أحشاء المحيط .

بينما تمتد يد القدر الأعلى إلى نوح عليه السلام بحبل متين يصله بأقوى الأقوياء سبحانه . ولا بأس أن يرقص الطائر الذبيح ، لابأس أن يهذى المحموم لحظات يعزى فيها نفسه حيال موقف تتبدى فيه علامات هدوء يسبق العاصفة الجائحة .

وعلى الرسول أن يترقب النصر القريب .

ولا داعى للحزن والبؤس والشكوى بعد اليوم بما كانوا يفعلون في السنين الطوال من تكذيبهم وعنادهم وإيذائهم لك ولمن آمن لك .

فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم وسماع أقوالهم . ومن إعراضهم واحتقارهم بينما تستغفر لهم .

لقد طالما تفننوا في إيذائك وكنت دائماً كتلك الشجرة المعطاء ، تعطر الفأس التى تحاول قطعها !

أما اليوم : فالعدل فوق الرحمة .

فإذا وقع العذاب " لا تخاطبنى في الذين ظلموا " .

فلتتوقف هذه العواطف الجياشة بالحب والرحمة ، ليكف النبع الصافى عن الجريان ، ولو إلى حين .

إلى حين ينتهى الأمر ، وتصفو الحياة مع القلة المؤمنة التي تستأنف بها العيش من جديد .

لقد كان عليه السلام رقيق الطبع . دمث الخلق .

وتصوروا معى أى كنز من الحنان كان يملكه رسول الله نوح : فقد عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً يلاقى ما يلاقى من عذاب وأسى .

لكن القلب الكبير لا يكف عن الوجيب ، والخلق الأصيل ما زال خصباً يعطى الحياة من حوله ، أمنا وسلاماً . ووداداً .

ولكن حين يصبح الأمر تدليلاً لأطفال ، كبروا وشبوا عن الطوق .

حين يفرغ العناد كل ما فيجعبته من سهام .

حين يتحول الأمر فوضى تهدد مستقبل العقيدة ، أو الوطن بالخطر . فإن العواطف يجب أن تتخلى ، وتعطىالزمام للإرادة الصلبة الحازمة ، في محاولة لتأديب العصاة ، الذين يحاربون القانون باسم القانون ! .

ويشوهون معنى الحرية ، دفاعاً عن الحرية ، أو هكذا يزعمون !

على أن يكون ذلك كله ، لحساب القلة المؤمنة الواعية ، التى باعت نفسها للحق ، ووقفت تشد من أزر الرسول ، ليستمر تدفق الحياة .

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

لماذا يسخرون منه ؟

قد يدعو مصلح إلى مبدأ ما .. وقد يلجأ أعداؤه إلى قتله تخلصا منه ..

وحينئذ فمن الممكن أن تلتفت الجماهير إلى الحدث . فتحس بهذا الذى قتل .. ثم تبكى عليه وكانت من قبل لا تشعر بوجوده !

وبذلك يكسب ميتاً ... مالم يحققه حياً !!

من أجل ذلك .. يجرب الطغاة أسلوب السخرية بالمصلحين .. فى محاولة لهز صورتهم في أذهان الناس . ولينفض السامر من حولهم .. ولعل هذا ما أشار إليه المستشرق " زويمر " حين قرر :

أن أفعل وسيلة لصد الناس عن دعاة الدين هو شَنَّ حملة من السخرية عليهم لتنفير الناس منهم ..

وهى استجابة عميقة لتوجيهات الشيطان الرجيم الذى يئس أن يعبد غير الله في الأرض .. فرضى بما يحقر الناس من أمور .. من بينها تلك الكلمات الساخرة .. أو النكات اللاذعة حول موقف الدين ورجاله من قضايا الحياة !

لكننا ننظر في إعجاب إلى موقف رسول الله نوح .. الذى أمده الله بروح منه فكابر وحده أفواج الطغاة المتحرشة به :

(فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ )

ثم ترتفع به قوة إيمانه وثقته بربه فينظر إليهم من عَلُ . مهدداً متوعداً : (فسوف تعلمون) وهى لحظة مباركة في حياة المرسلين والقواد المصلحين : إن نوحاً عليه السلام وقف وحده .. يواصل عمله .. وها هى ذى جموع المتآمرين والمستغلين تطوف به .. كل أبواق الدعاية بمختلف أساليبها .. تشغب عليه .. وتشوش موقفه الصريح بادعاءاتها.

لكنه ساكن سكون البنيان .. وفى قلبه ما يشبه البركان .

صامت .. لكن في تدبير . هادئ .. ولكن في تفكير .

وحين يبلغ العناد آخر مراحلة .. فإن عذاب الله يأتى في وقته المناسب . يأتى عارماً مدمدماً .

(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

وحاشا لله سبحانه أن تكون له عين كأعيننا لكنه التعبير الحى الموحى بالطمأنينة والأمن ..

وإذا كان سبحانه يقول لموسى عليه السلام :

" ولتصنع على عينى " فقد كان إفراد العين هنا مناسباً لوضع موسى عليه السلام الذى كان بنجوة مِنَ الرقباء .. فى سِتْرٍ حَرِيزٍ بحيث لم يكن الخوف يتناوشه من كل جانب.

أما هنا .. فالتعبير بالأعين كما جاء في المنار :

( لإفادة شدة العناية بالمراقبة والحفظ ) .

لقد كانت الأخطار تتهدد نوحاً عليه السلام من كل جانب :

إنه يقف على أرض مكشوفة .. وحيداً .. يصنع الفلك و لم يكن قبل على علم بها.. ومن حوله وعلى اتساع الأفق .. ترصده عيون الناس – وتحاول أن تسلقة ألسنة حداد .. والجو كله يوحى بالتربص والعدوان .. ومن ثم يجىء التعبير بالأعين في الآية الكريمة ليرسم صورة لحفظ الله ورعايته ...

وكأنما الأفق الممتد .. كله عيون رانية .. وسيوف مشرعة تحرس هذا الوحيد الذى يتربص به كل البشر .

وإذا الأنس بالله تعالى يختلج به فؤاده .. ويمنحه طمأنينة لا حد لها .. مهما ظنت الكثرة الكاثرة بقوتها الظنون :

وإذا العناية لا حظتك عيونها

نم فالمخاوف كلهن أمان

ثم يزداد إحساسه عليه السلام بالأمن حين يخبره الحق سبحانه بأن العذاب وشيك الوقوع بقومه ..

وعند وقوعه .. سوف يكون بيده زمام المبادرة .. وتوجيه الموقف كله .. لقد تغير كل شىء !! .

فبالأمس : كانت الرحمة فوق العدل ..

أما اليوم : فالمقام للعدل يقول كلمته !

والعجيب .. أن معنى السخرية يبدو جليا حين يفور الماء من مكان لا يخطر علي بال

من التنور !!

إنه الجزاء من جنس العمل :

عذاب السخرية المخزى ..

ثم وعذاب الاستئصال .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

## من علامات الاستكبار

إن رحلة في رأس واحد من المستكبرين تقف بنا على اتجاه أفكاره :

فهو يحسب نفسه مركز الكون .. فكل شيء يدور فـي فلكـه .. يظـن أنـه شمـس.. وهؤلاء عَبادها .

وبهذا التصور الغريب يورط نفسه في مشكلات فوق ما يحمل البشر

فالدنيا تقوم ولا تقعد .. إذا تخطيته و لم تلق عليه السلام ..

وكل من لم يشاركه في أفراحه وأتراحه يرتكب مخالفـة خطـيرة كهـذا الـذى يخـالف سنة من السنن الكونية !

والذين لا يضعونه علـى رأس القائمـة في المحـافل جـاهلون . لأنهـم لا يـرون حقيقـة تزحم الأفق العريض .. أو هكذا يتصور المستكبرون !!

ويمكن في لحظة ما أن يتناسى مثل تلك الإهانات في ظل من غـرور يلاحقـه بسياسـة التبرير ..

لكن الزلة الوحيدة التى لا يغفرها . أن يطلع عليه واحد بسخرية أو استهزاء ..

لأن السخرية تنطوى على تحد سافر لوضعه بين الناس . ثـم هـى مـن ناحيـة أخـرى اعتداد من الساخر بمركزه .. بحيـث يضـع نفسـه في محـاذاه المغـرور .. إن لم يطـأ بقدمـه هامته!!

ومعنى ذلك . أن الاستهزاء به محاولة ناجحة لشطب وجوده كله .. وليست كالذى سبق انتقاصاً من هذا الوجود مع الاعتراف به ابتداء .

وعند هذه اللحظة التي يقف فيها المصلحون إزاء الطغاه موقف الساخر مـن كـل مـا يمكرون : يقتعدون قمة عاليـة مـن الثقـة بـا لله سبحانه .. تنحـل بهـا عقـدة المكـر لـدى المغرورين..

ثم تنهار أعصابهم إن طالعتهم الداهية من حيث لا يحتسبون .

وفى هذا المنعطف الخطر لايكون هناك اختيار : فإما الاستسلام للحق الـذى يفـرض نفسه فرضاً .

وأما العذاب المدمدم .. يطوى حياتهم طياً ..

وهذا ما حدث لقوم نوح .. فقد أذل كبرياءهم عليه السلام حين قبل منهم التحدى.. ورفض إنذارهم .. بل ورد عليه بسخريات لاذعة . فتتت فيهم ما بقى من روح مقاومة غاربة . تلملم اليوم أشلاءها .

## " نظرات جديدة " (١)

**يقول تعالى :**

**﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾**

لاحظ أن القوم يعكسون بردهم ضعف موقفهم تجاه الحق على لسان نوح عليه السلام وقلبه :

١- فهم لم يواجهوه عليه السلام بتهمة الكذب وحده .. وإنما يعممون .. ولا يركزون .

ب - ثم إنهم لم يجزموا بها .. وإنما هو مجرد الظن .

جـ- كما وأنهم لم يجعلوا نوحاً عليه السلام في طبقة الأراذل .

د - ولاحظ أيضاً أنهم أخروا تهمة الكذب .. لتجىء في ذيل صحيفة الاتهام .. لماذا؟

يقول صاحب المنار :

[ وهذا هو الأرجح الأقوى لرد الدعوة .. ولكنهم أخروه في الذكر : لأنهم لو قدموه لما بقى لتلك العلل الأخرى وجه . وهى وجيهة في نظرهم .. ولابد لهم من ذكرها].

وهكذا يجهد المبطلون أنفسهم لرد الحق وتشوية الداعى إليه .. محيطين أنفسهم بهالة كاذبة من الاحترام حين كرموا أنفسهم فلم يجزموا بالتكذيب .. فرارا من إعلان يقينهم والذى لا يملكون عليه دليلاً .

---

(١) بعد ثلاثين عاماً كانت لى تلك النظرات التحليلية .. فهل أضافت جديداً !؟! أرجو .

**هـ- ويلفت النظر أيضاً :**

أنهم يبالغون في اتهاماتهم ..حين يختارون أسلوب القصر سبيلاً إلى تأكيد مزاعمهم. وذلك قولهم :

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ .

﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ .

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ .

والتعبير بحرف الجر في قوله تعالى [ من فضل ] يدل على تجريد المؤمنين من كل فضل .. كبير أو صغير !!

وكأنما يريد الحق تعالى أن يفضحهم بما قالوا .. ليكونوا بهذه المبالغةوهذا التأكيد شاهدين على أنفسهم بالكذب . يقول الباحثون[١].

[ إن الشخص الواثق من نفسه لا يرى هناك ما يدعوه إلى التماس وسائل غير عادية ليحمل غيره على تصديقه وحتى مع تأزم الموقف .. فإن الواثق بنفسه يجد عنده القدرة على الثبات .. والاستعداد لتحمل ما ينجلى عنه الموقف أيا كانت النتيجة . ولا يفقد مع ذلك ثباته . وهذا مثل لأحد مواقف الثقة بالنفس :

فيوسف عليه السلام نجده حين بلغ به الموقف غاية الخطورة حين اتهمته سيدته أمام سيده بمحاولة العدوان على عرضها طالبة له أسوأ العقاب .. نجد ثقة يوسف بنفسه تجعله ينفىعن نفسه التهمة في أسلوب عادى .. خال من الحلف والتوكيد حين قال هذه الكلمة البسيطة .

﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾

مع أن هذا الأسلوب مخالف للقواعد التى تعارف عليها علم البلاغة : من حيث إن موقف الإنكار يقتضى التوكيد وموقف يوسف حينئذ محاط بكل أنواع الإنكار .

فكان المتوقع أن يحاول تأكيد براءته . لكنه لم يفعل .. وكان أسلوبه في قمة البلاغة].

---

(١) د. عبد الحليم حفنى .

هذا هو صاحب الحق .. وإن له لمقالاً .. وما به من حاجة إلى التذرع بأدوات التوكيد .. تاركاً له .. يفرض نفسه بقوته الذاتية .

أما قوم نوح .. فلأنهم كاذبون .. وفى نظر أنفسهم فهم يتترسون وراء أدوات التوكيد .

ولا تسمح لهم أنفسهم الضعيفة أن يواجهوا الحق إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر .

جدر من الأكاذيب .. لكنها لا تصبر على النقد الصحيح .

**شبهات الملأ .**

يقول الله تعالى :

**﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾** .

نبسط هنا ما ذكره المفسرون :

يطعن الكافرون في نبوة نوح عليه السلام بثلاثة أنواع من الشبهات :

الشبهة الأول :

أنه بشر مثلهم .. والتفاوت بين البشر لا يصل إلى حد أن يكون واحد منهم رسولاً يجب على الجميع طاعته .

لأن المفروض أننا متساوون في البشرية .. ومما ينافى هذه المساواة . أن يكون بشر رسولاً .. لأن ذلك ترجيح بلا مرجح .

**الشبهة الثانية :**

أن مما يمنعهم من الإيمان كون الذين اتبعوه هم الأراذل من أهل الحرف الخسيسة.

وكأنهم قالوا :

لو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس ونظيره قوله تعالى : **﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾** .

**الشبهة الثالثة :**

إنه لا فضل للمؤمنين عليهم لا في العقل ولا في قوة الجدل .

ولا في رعاية المصالح العاجلة .

وإذا لم تكن أفضل منا فى هذه الأحوال الدنيوية .. فكيف نسلم لك بالفضل علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات وهو : النبوة ؟ !!

## رد الشبهات :

نعيش مع الرازى الذى ينوب عنا في رد هذه الشبهات :

[ أما عن البشرية وإدعائهم أنها مانعتهم من اتباعه فهذا جهل .

لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان . لا بالصورة والخلقة .

بل نقول :

إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكاً .. لكانت الشبهة أقوى في الطعن عليه فى رسالته :

لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التى ظهرت .. لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه .. بسبب : ( أن قوته أكمل . وقدرته أقوى ) .

فلهذه الحكمة ما بعث الله إلى البشر رسولاً إلا من البشر .

**أما عن التهمة الثانية وهى :**

﴿ **اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ** ﴾ يقول النيسابورى مبينا خطأ المقياس عندهم في تقدير الناس: [وإنما استرذلوا المؤمنين .. لاعتقادهم : أن المزية عند الله تعالى بالمال والجاه] .

و لم يعلموا أن ذلك مبعد من الحق .. لا مقرب منه .. وأن الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا .. والإقبال على الآخرة : فكيف يجعل قلة المال طعنا في النبوة .. وفى متابعة النبى المخابر لا المظاهر .

يقول بعض الباحثين [1] يحذر المسلمين من الانخداع بالمظاهر :

[ لا ينبغى أن يتخذ المظهر مرجحاً في حكمنا على الأشخاص : بل ينبغى أن يكون المسلمون أعمق وأدق في أحكامهم : فكثيراً ما كانت المظاهر ثغرات يؤتى من قبلها

---

(١) د. عبد الحليم حفنى .

الناس يكبرون الشخص أيما إكبار حينما يرون مظهره .. ثم يصغرونه أيما إصغار حين يلمسون مخبره .. كما حدث مع أبى حنيفة .. حينما كان يلقى درساً.. وقد مد رجله .

وإذا شيخ جسيم وسيم مهيب . يدخل عليه مجلسه . فثنى رجله . واعتدل في جلسته . إجلالاً للرجل . واستمر في درسه عن حكم صلاة الفجر إذا طلعت الشمس أثناء الصلاة .

وإذا هذا الشيخ المهيب يسأل أبا حنيفه قائلاً : وما الحكم إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟

فقال أبو حنيفة :

آن لأبى حنيفة أن يمد رجله !!

أما عن الشبهة الثالثة وهى : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾

فهذا – كما قال الرازى – أيضاً جهل :

لأن الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى ليست إلا بالعلم .. والعمل . فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ] .

*****

# الـهجوم المفاجئ
# والـمنطق الهادئ

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . وَيَقَوْمِ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّهُمْ مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ . وَيَقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾

**تمهيد :**

لقد جاء نوح عليه السلام قومه بالعقيدة الصالحة المصلحة ..

وإذا سلمت العقيدة .. سلم ما بعدها .. وما انبثق عنها .. وهذا يوسف عليه السلام – وهو في السجن – يبدأ بها حواره مع زملائه :

﴿ يَصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ يوسف : ٣٩ ] .

وعيسى عليه السلام وقد كان في المهد صبياً .. يضع للحوار أهم ضوابطه : الموضوعية .. والبعد عن التجريح : إنه عليه السلام لم يرد على الشتائم ..

وإنما بدأ بصلاح العقيدة أولاً .. حتى لا تكون في ظلها شتائم .. ولا سخائم !

وذلك فيما حكاه عنه القرآن الكريم .

﴿ قال إنى عبد ا لله ﴾ .

والعبودية عقيدة .. ومن خلالها .. وانطلاقا منها .. بدأ ينفى عن أمه التهمة النكراء.

وهكذا فعل نوح عليه السلام كإخوته من الرسل :

﴿ ألا تعبدوا إلا ا لله ﴾

ولكن القوم .. هاجموه . فاتهموه هو والذين آمنوا معه . وكان لابد من رد التهم.. فى إطار من الحكمة الهادية :

ومع جفاء منطق القوم وجسارته .. لكن نوحاً عليه السلام . لم يغضب فلا يحمل بالقاضى أن يقضى وهو غضبان : لماذا ؟

لأن الغضب مانع من تصور القضية تصوراً كاملاً وسليماً ومن ثم .. يفسد الحكم .

ولأن الطرف الآخر هنا حائر .. قلق . فلابد في الجواب من أمرين :

أن يكون واضحاً . وأن يكون سريعاً .. قبل أن تستقر المعانى الرديئة في قلوب العامة المخدوعين .

## بين الغضب والحزن

أجل لم يغضب نوح عليه السلام لسبب آخر

**فالغاضب هو :**

من يقدر على إنفاذ ما يراه ..

أما من لا يستطيع .. فهو حزين ..

فالغضب قوة .. والحزن ضعف . ولذلك يوصف تعالى بالغضب .. لا بالحزن.. ولما كان نوح عليه السلام يواجه سكان الكرة الأرضية عندئذ .. فلم يسعه إلا أن يحزن .. إلا أن يأسى على قوم معاندين .

لكن الحزن لم يمنعه من مواصلة الحوار كأسمى ما يكون الحوار

وفي معنى خطاب نوح عليه السلام يقول صاحب المنار :

[ أخبرونى يا قومى الأعزاء : ما رأيكم وقولكم في حالى معكم ؟ .. إن كنت على حجة ظاهرة من ربى فيما جئتكم به تبين لى بها أنه الحق من عنده .. لا من عندى .. ولا من كسبى البشرى الذى تشاركونى فيه .

وإنما هى فوق ذلك " آتانى رحمة من عنده" وهى النبوة. فخفيت عليكم. أى :

حجبها عنكم جهلكم وغروركم بمالكم وجاهكم .. فلم تستبينوا بها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم إذ جعلتمونى بشراً مثلكم أخبرونى [ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ]

أى أنلزمكم إياها بالجبر والإكراه . والحال أنكم كارهون لها إنكاراً وجحوداً واستكباراً ؟

أى : لا نفعل ذلك .. فإن الإسلام لا يصح إلا بالإيمان والإذعان " وما على الرسول إلا البلاغ .

وهو أول نص في دين الله تعالى يدل على أنه : ما كان . ولا يصح أن يكون بالإكراه .

وأما فعله نصارى الإفرنج في سابق تاريخهم - وما لا يزال يفعله بعضهم في مستعمراتهم - من التنصير بإجبار القوم على النصرانية فهو ما يميزون به عن غيرهم .

وهذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام . ورد لإنكارهم لها . وتكذيبه ومن معه فيها.. وإبطال لشبهتهم الأولى في أنه بشر مثلهم .

وهى أى شبهتهم مبنية على أن المساواة في البشرية تقتضى استواء أفراد الجنس.

## تشابة قلوب الكفار

يقول الله تعالى :

" **تشابهت قلوبهم** " الآية

ومن هذا التشابه طلب الملأ طرد المؤمنين ..

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [ الأنعام : ٥٣ ] .

جاء في أضواء البيان : [1] .

[ أجرى الله الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل : ضعفاء الناس . ولذلك لما سئل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا صلى الله عليه وسلم : أأشراف الناس يتبعونه.. أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم .. قال : هم أتباع الرسل . فإذا عرفت هذا .. فاعلم :

أنه تعالى أشار أن من حكمة هذا فتنة بعض الناس ببعض : فإن أهل المكانة والجاه والشرف يقولون :

لو كان في هذا الدين خير .. لما سبقنا إليه هؤلاء . لأنا أحق منهم بكل خير.. إنكاراً منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم . زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم .

وقد رد الله تعالى قولهم هنا بقوله :

---

(١) ج ٢ / ١٩٣ .

﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر . كقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [ الأحقاف: ١١].

**وقوله :**

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ [ مريم : ٧١ ] .

**والمعنى :**

أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل . ومتاعاً .. من ضعفاء المسلمين . اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير .. ولقد رد الله تعالى افتراء هم هذا بقوله تعالى :

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا ﴾ .

وقوله سبحانه

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [1].

## بشرية الرسول :

ومما تشابه فيه الكفار : اعتراضهم على بشرية الرسول : لقد كانت بشرية الرسول واحداً من الموانع التى تذرع بها المعاندون .. وعلى مدار التاريخ :

قال تعالى في عجب قوم نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك :

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ [يوسف:٢] .

وقال سبحانه :

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ ص : ٤ ] .

وقال عن الأمم السابقة :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاستَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [ التغابن : ٦] .

---

(١) المؤمنون : ٥٥ : ٥٦ .

وقال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤].

وقال سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [ المؤمنون : ٣٤ ] .

بل وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله تعالى:

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث ا لله بشراً رسولاً﴾ وكأنهم يقولون: إذا كانت بحور المقارنة بلا شطآن فما من غنى إلا وهناك من هو أغنى.. وما من جميل إلا وهناك الأجمل . لكن الأمر لا يصل إلى حد أن يكون بشر رسولاً .. والآخر : تابعاً مأموراً وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في آيات كثيرة . منها قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [ الأنبياء : ٧ ]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ [ الفرقان : ٢٠]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [ الأنعام : ٩ ]

ويدفعها ما هو معلوم بالحس والخبرة ( بالضم أى : الاختبار ] من التفاوت العظيم بين أفراد البشر في العقل . والفكر . والرأى . والأخلاق والأعمال . بما هو أبعد من التفاوت بينهم وبين بعض الحيوان الأعجم .

حتى إن واحداً منهم ليأتى من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل ما يعجز عن مثله الألوف الكثيرون في القرون المتوالية . وكل هذا في محيط التفاوت العادى . والعلم والعمل الكسبى وفوقهما ما اختص الله به من شاء من عباده بما لا كسب لهم فيه.. فجعلهم أنبياء ورسلاً له .

*****

## من تناقضات الملأ

من التهم الباطلة . والتى روج لها الملأ من قوم نوح أن الأراذل اتبعوه بلا روية ولا تفكير .

ولعمرى : إن الملأ هم أولى منهم بهذه التهمة :

فإذا كانوا فعلاً هم الأشراف . والعقلاء الأذكياء . فإن من شأن ذلك أن يحملهم على التفكر والتدبر قبل أن يتهموا الفقراء بما هم منه براء ..

لكنهم هم الذين كفروا " بادى الرأى " حين سارعوا برد الحق فور سماعه .. كما يفيد التعبير بحرف العطف " الفاء " في قوله تعالى :

﴿ فقال الملأ الذين كفروا .. ﴾

لقد كانوا جاهزين للإنكار مع توفر دواعى الإيمان . فأى الفريقين خير مقاماً ؟

وهكذا يزيد الله الضالين ضلالا بسوء اختيارهم ..

وفى مقدمة هؤلاء الضلال : قوم نوح .. الذين كان التناقض سمتهم البارزة .. كما رأيت .. وكما حكى عنهم القرآن في مواضع أخرى :

فلقد اتهموه أيضاً بأنه بدعوته يطلب الرياسة لكنهم أيضاً . وفى نفس الوقت يتهمونه بالجنون . فكيف يكون مجنوناً .. ومع ذلك يطلب الرياسة ؟ !

ذلك ما لا يكون !!

ومع ذلك .. فإن الحكمة قاضية بالتلطف مع قوم هذا شأنهم رأفة بهم .. واستدراجاً لهم .. فلعلهم أن يؤمنوا وليس ذلك تدليلاً .. وإنما هو قانون التعامل مع الملأ.

لقد أدرك النبى محمد صلى الله عليه وسلم ما للملأ . أو الزعماء من تأثير في مجرى الحياة العامة . بما يملكون من أدوات التوجية والتأثير . ومن ثم . كان لابد من استمرار مخاطبتهم على ما هم فيه من تناقض .. وباللطف .

لأن مصلحة الدعوة تقتضى ألا يطوى الملف . فلعل في قابل الأيام ما يعود بهم إلى الحق المبين .

من أجل ذلك يواصل عليه السلام الحوار قائلاً ما حكاه القرآن الكريم على لسانه :

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينه من ربى . ﴾ الآية .

**أما بعد :**

فعندما تركز بصرك على شخص ما .. وأنت صامت . ساكن .. فذلك يعنى من وجهة نظره أنك تقول في نفسك عنه .. مالا يعجبه .. بل ما يغضبه ..

وكأنك - كما قيل : -

كأنك تحاكمه.. ثم تحكم عليه غيابياً .. بلا تحقيق.. ولا محاكمة.. ولا دفاع .

ولكن نوحاً عليه السلام يواجه قومه . علانية . وعلى أرض مكشوفة .. فما كان لنبى أن تكون له خائنه الأعين .

وصحيح أنه عليه السلام يواجههم بما يكرهون . ولكن الطبيب لن يلقى بالمبضع لأن المريض يطلب منه ذلك . ولو أنه استجاب لتوسلات المريض . لمات الطبيب .. أدبياً .. ومات المريض واقعياً !

وصحيح أيضاً :

أن الحوار هنا ساخن .. ومن طرف واحد ..

ولم يكن للداعية هنا خيار .. إلا ما حدث .. بعد أن بين لهم غاية البيان .. واستنفذ كل الوسائل في استمالتهم . لكنهم استمروا معرضين .

وإذن : فآخر الدواء الكى !

*****

# الطوفان

# في التوراة والقرآن

**تمهيد :**

إذا كان موضوع حديثنا نوحاً عليه السلام وقومه .. وإذا كان الموضوع نفسه وارداً في التوراة والقرآن .. فقد وجب علينا أن نوضح العلاقة بين القرآن والتوراة توضيحاً يذهب بكل شبهة تحوم حول القرآن الكريم .

وبذلك يمكن لنا أن نسهم في حسم النزاع فيما لو تعرض الكتابان كلاهما لقضية واحدة .

وكيف يؤول الأمر أخيراً إلى القرآن الكريم الذى نستمد منه وحدة فصل الخطاب.. فى كل موطن تزل فيه الآراء :

والآية - ٤٨ - من سورة المائدة تحدد هذه العلاقة تحديداً صريحاً يتفرد فيه القرأن باالهيمنه على سائر الكتب :

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدِّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقّ لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً. وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَلَـَكِن لّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَىَ ا الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

وقبل هذه الآية يصف سبحانه التوراة بأنها :

﴿ هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النّبِيّونَ الّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلّذِينَ هَادُواْ وَالرّبّانِيّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ .

وفى آية أخرى جاء وصف الإنجيل بأنه :

﴿ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التّوْرَاةِ ﴾

ومن بين الحقائق التى تشير إليها الآيات الكريمة :

١- التوراة : كتاب هداية وإرشاد . لكن التحريف قد يتطرق إليها حيث وكل أمر حفظها للبشر بخلاف القرآن الذى تكفل سبحانه بحفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : ٩ ] .

٢- الإنجيل كالتوراة : هدى ونور .. وكالقرآن مصدق للتوراة .

٣- يتفرد القرآن بخاصية الهيمنة على كل ما سبقه من كتاب :

فيصدق في حالة الاتفاق :

وفى حالة الاختلاف .. تصبح كلمته هى العليا في تصحيح الوقائع .. وردها إلى الحق الثابت .

٤- كانت هناك محاولات للتلبيس على الرسول صلى الله عليه وسلم . وإغرائه بالميل نحو ما يقرره أهل الكتاب .

لكن الحق سبحانه يحذره أن يتبع أهواءهم . بل يلفت نظره إلى ضرورة أن يأخذ زمام المبادرة .. وأن يمسك بدفة التوجية .. توجيه الحياة كلها .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل ا الله ﴾ .

وبراءة القرآن من التحريف ضرورة تفرضها عالميته وبقاؤه أبد الدهر . يخاطب الناس في كل العصور .

ومن ناحية أخرى .. فهى نعمة كبرى حفظ الله بها على الأمة الإسلامية وجودها حين حفظ كتابها الكريم . الأمر الذى يفرض بدوره مزيداً من الحذر واليقظة في كل دراسة تتعلق بكتاب الله . وخاصة في وقت تشرع فيه أقلام هنا وهناك في محاولات تستهدف تحريف الكلم عن مواضعه :

يقول المرحوم الدكتور محمد الغمراوى مذكراً بهذه النعمة مفسراً قوله تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر " .. الآية .

( منة الله ونعمته على البشرية فيها تجل عن الشكر . وتعظم فلا يحدها حصر ولا تقدير .

فشطرها الأول تقرير من الله ذى الجلال لطبيعة القرآن والحكمة فيه أنه ذكر .. بل إنه الذكر الذى لا ذكر غيره . أولاً ذكر يضارعه . أو يدانيه . أو يغنى عنه . وشطرها

الثانى تقرير وتوكيد من الله القادر المقتدر أنه هو الحافظ للقرآن من عوامل التغيير والتحريف على مر الأزمان وتغير الظروف .

فالشطر الثانى من الآية الكريمة محقق للحكمة المقررة في شطرها الأول .

وكل من الشطرين معجز في نظمه ومعناه .

لكن المعجزة الكبرى في الآية :

تحقق ذلك الحفظ الموعود تحققاً فعلياً . رغم القرون الكثيرة التى مرت بأحداثها وتقلباتها . منذ نزل القرآن .

فالقرآن اليوم – رغم ما يوسوس به أعداؤه من المستشرقين أمثال اليهوديّيْن :

" جولد زيهرُ وجيوم " والنصرانيّيْن : " مرجليوث وموثر " هو القرآن الذى توفى عنه الرسول صلوات الله وسلامه عليه بجملته وتفصيله . بترتيب سورة . وترتيب الآيات فى كل سورة . والكلمات في كل آية . لم يتقدم ولم يتأخر لفظ .

فالقرآن الكريم هو هو .. لم يتغير وليس للرسول فيه إلا البلاغ .

﴿وَلَو تَقَوّلَ عَلَينَا بَعضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذنَا مِنهُ بِاليَمِين . ثُمّ لَقَطَعنَا مِنهُ الوَتِينَ﴾

[الحاقة٤٤ ، ٤٦] .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في " النبــأ العظيـم " بعـد أن ذكـر بعـض آيات تتعلق بنزول القرآن وتلاوته :

( فانظر كيف عبر بالقراءة . والإقراء . والتلاوة . والترتيل . وتحريك اللسان . وكون القرآن عربياً .

وكل أولئك من عوارض الألفاظ . لا المعانى البحته .

القرآن إذا صريح في أنه " لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا لأحد من الخلق .. وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه " .

وقد صدق الفخر الرازى حين قال مؤكداً هذه الحقيقة :

ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها. ولا تصل إلى أكثرها .

وما أوتى البشر من العلم إلا قليلاً

وإذاً .. فآية المائدة السابقة تنقض كل قول يحاول رجع القصص القرآنى إلى أهل الكتاب من حيث كان هذا القول محاولة سلب لخاصية الهيمنة التى تفرد بها القرآن . بل وإعارتها إلى غيره ممن ضبطهم القرآن متلبسين بجرائم التحريف والتبديل والكتمان .

وقد خاضت أقلام كثيرة في هذا الموضوع .

ونحن لا نملك الحكم على نوايا الكاتبين من أهل القرآن .. بل إننا لنؤكد صدق هذه النوايا فيما تكتب بحكم الإيمان بالقرآن . حسب ما يوحى به ظاهر الحال .

لكن التزامنا بالكتاب الذى هو مصدر الحق فى كل موضوع يفرض علينا مناقشة هذه الآراء وقاية من لبس قد يقع فيه البعض وهم لا يشعرون :

يقول صاحب كتاب " الفن القصصى في القرآن " .

" والظاهرة التى يحسن بنا الالتفات إليها فى هذا المقام :

« هى أن القرآن حين جعل هذه الأخبار – أى التى وردت في قصصه من آيات النبوة وعلامات الرسالة – جعلها أيضاً مطابقة لما كتب في الكتب السابقة . أو ما يعرفه أهل الكتاب من أخبار .

حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها أو صحتها من الوجهة التاريخية . ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفة أهل الكتاب من أخبار.

قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

وقال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس : ٩٤] .

وقبل مناقشة هذا القول نبادر فنقول :

إن الرسول صلى الله عليه وسلم سكت فلم يمنع الصحابة من التحدث بحديث أهل الكتاب .

لكن ذلك قد كان فيما يتعلق بالآيات الكونية التى تركها الله عزَّ جلَّ في متناول كل إنسان .. يستلهمها العبرة بمفرده .. دون مرشد أو رسول يشرح له دلالاتها . لأن

كل تصور لأية : آية كونية وإن بعد عن الحق .. فسوف يحقق الغرض منه في تزكية الإحساس بعظمة الخالق سبحانه وتعالى .

ومن ذلك .. ما رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عندما قال حبر من الأحبار : " يا محمد : إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع . والأرضين على أصبع " الحديث .

ولكن الأمر يختلف تماماً حين يتصل الحديث بأحكام شرعية حددها الإسلام .. لأن الأمر أولاً وأخيراً يرجع إلى القرآن والسنة وحدهما في بيانها دون رجوع إلى كتاب آخر أو إلى أهله ..

فهذه أمور لم يكلها الحق سبحانه لاجتهاد أحد مخافة الفتنة . ثم تولى سبحانه تبيانها للناس رحمة بهم أن يضلوا في فهمهما أوتطبيقها .

وإذا كان السيد الدكتور يرى العودة ببعض القصص القرآنى إلى أهل الكتاب الذين هم في نظره مقياس الصواب والخطأ .. فعليه أولاً وقبل كل شيء .. أن يبين لنا رأيه في آيات من القرآن الكريم تثبت كذب بعض هؤلاء وتدليسهم ..

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨ ] .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [ البقرة : ٧٩ ] .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ البقرة : ١٤٦ ] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـٰئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [ البقرة : ١٥٩ ] .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [ المائدة : ١٣] .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [ المائدة : ١٥ ] .

فمن أهل الكتاب ضالون .. محرفون .. يكتمون ما أنزل الله من الحق بعد أن استيقنته أنفسهم .. بغية أن يكونوا هم والمسلمون سواء ..

فكيف - مع هذا - نتجه إليهم نلتمس وجه الصواب ؟

وفى أى موضوع نلتمس ؟

في أمر يتعلق بالنبوة والرسالة ؟

مع أن استعدادهم للتحريف ما زال قائماً .. إلى يوم الدين ﴿**وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ**﴾ [ المائدة : ١٣] .

إن فاقد الشيء لا يعطيه .

لكن مالك هذا الشيء .. لكن مالك الحقيقة هو القرآن وحده القادر على المنح والعطاء .. فعلى حملته أن يقتنعوا بذلك أولاً .. ليمكن لهم ثانياً أن يطالبوا أهل الكتاب باتباعه . كما يفهم من قوله سبحانه :

﴿ **يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ** ﴾ [ النساء :٤٧].

ثم إن بناء البحث العلمى على الخيال أمر يرفضه الدين وأهله الذين يقيمون قضاياهم على أساس من البرهان الوثيق .

لأن خطر القضية يجعل الزلل بشأنها بعيد الأثر في حياة الناس . بحيث يصبح الخطأ المعفو عنه في الأمور الصغيرة كبيراً هنا .. لأنها تتصل بالدين وأصوله وعلاقته بقوم يقعدون له كل مرصد .. متلمسين كل هفوة .. متلقفين كل رأى يقوله مسلم.. ولو بحسن نية .. ليجعلوا منه نقطة ارتكاز يقفزون منها إلى أغراض لهم حدودها بغية تمزيق الإسلام وأهله ..

ولو قرأ الدكتور الآية السابقة على هذا الرأى لوفر على نفسه مضاعفات هذا الرأى:

﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات .. فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

فليس اختلافهم نتيجة حوار ينشد الحق فيختلف الرأى فيه لاختلاف زوايا الرؤية .

لكنه اختلاف مع سبق الإصرار والترصد .

ومن هنا يجيء التحذير في وقته المناسب . لافتا نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مزيد من استمساكه بالحق .. وحده .

﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾

أما آية سورة يوسف التى استشهد بها . فقد جاء في تفسير الطبرى شرحاً لها :

" فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك فأنزلنا إليك من أن بنى إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولاً إلى خلقه لأنهم يجدونك عندهم مكتوباً ويعرفونك بالصفة التى أنت بها موصوف فى كتابهم في التوراة والإنجيل .. فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام ونحو من أهل الصدق والإيمان بك منهم .. دون أهل الكذب والكفر بك منهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل : قال ابن عباس في قوله : فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك " قال : أهل التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فآمنوا به . يقول :

**" فاسألهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم " .**

فإن قال قائل :

أو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في شك من خبر الله أنه حق يقين حتى قيل له . فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك " قيل : لا " .

وكذلك قال جماعة من أهل العلم . عند سعيد بن جبير :

( لم يشك النبى صلى الله عليه وسلم ، و لم يسأل ) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يشك ..

وبالتالى لم يسأل طبق هذه الرواية .. وعلى فرض أنه سأل كما تشير روايات أخرى.. فقد كان ذلك في موضوع خاص محدد .. يتجه فيه بالسؤال إلى مؤمنين كانوا من قبل نصارى أو يهوداً . ويعصمهم الإيمان فلا يكتمون أو يحرفون .

ومن هنا .. فقد كان من الضرورى تحديد الكلام وضبط المفاهيم . لأن إطلاقة على عواهنه .. يوقع القارئ العادى في لبس يفقد معه الحقيقة .وفى ذات الوقت يدخل معنا

في القضية جماهير غفيرة من الحاقدين على الإسلام يمكن لها – بهـذا المنطـق – أن تتصـدر مجالس الفتوى .. فتحكم للإسلام أو عليه .. والنتيجة معروفة .

وفى تفسير القرطبى ما يفيد نفى الشك :

( فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك " الخطاب للنبـي صلـى الله عليـه وسـلم والمـراد غيره " .. أى لست في شك .. ولكن غيرك شك ) .

وإذا .. فهو خطاب غير مباشر لكل منحرف ليراجع حسابه في محاولة للإيمـان الـذى توفرت أسبابه وبخاصة ذلك النوع من المضللين الذى لم يكن منطقياً مع نفسه فحكم بـأن المشركين أهدى سبيلاً من محمد .. وفيه يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّـنَ الْكِتَـابِ يُؤْمِنُـونَ بِـالْجِبْتِ وَالطَّـاغُوتِ وَيَقُولُـونَ لِلَّذِيـنَ كَفَرُواْ هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾ [ النساء : ٥١ ] .

أما آية سورة يوسـف .. التـى ذكرهـا الدكتـور .. فإنهـا وإن أفـادت التطـابق بـين الكتـب في تقريـر الحقـائق بنـاء علـى التعبـير بـالمصدر في ( ولكـن تصديـق .. ) المشـعر بالتساوى بين القرآن وغيره .. فإن آية المائدة تشرح المراد بهـذا التصديـق .. فتعـبر باسـم الفاعل ( مصدقاً لما بين يديه ) .

وبذلك يزداد معنى الهيمنة وضوحاً ورسوخاً ويصبـح كـل رأى يخـالف مـا ثبـت في القرآن تهاوناً في فهم الكتاب الكريم .. الذى لا يعطى معانية إلا من طلبها بإخلاص ..

لكن النظرة العجلى قد تفوت على المرء كثيراً مـن الكنـوز المسـتورة وراء الكلمـات ولا يقـوم حسـن النيـة عـذراً .. إذا لم يجهـد المـرء نفسـه في البحـث والتنقيـب. والقــول بالرجوع لكل من هب ودب في تقرير الحقائق يعتبر تخليا عن مركـز الصـدارة التـى أنعـم الله به على هذه الأمة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [ البقرة :١٤٣] .

فضلاً عن صيرورة مثل هذا الفهم المتعجل أداة في يد مستشرق حاقد .. وقد تجد فى " جولد تسيهر " شاهداً حين يقول :

وإذا .. ما كان يبشر به محمد خاصاً بالدار الآخرة ليـس إلا مجموعـة مـواد استقاها بصراحة من الخارج يقينا . وأقام عليها هذا التبشير .

ثم يقول :

( أفاد من تاريخ العهد القديم . وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ) .

فانظر .. مرة أخرى .. كيف يصبح هذا الاتجاه سلاحاً في يد عدو لا يرحم ؟ فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى تفويت أغراضه .

ونعوذ بعلمائنا المخلصين أن يقفوا من كتابهم هذا الموقف المتسرع !

وقد قال العالم " نوس " :

( أن القرآن يظهر لأول وهلة عند ترجمته أنه نقل عن الأديان الأخرى .. لكن عندما يطالع بتمعن . فإنه يوحى إلينا بالعظمة الكامنة في آياته ) .

ومن حق القرآن علينا أن نقبل عليه بكل وعينا .. متلمسين الحق في كل موضوع .. ولا بأس بعد ذلك أن نستأنس بآراء العلماء المنصفين .. ومنهم العالم " نوس " هذا الذى يلفت نظرنا إلى هذه الحقيقة المرة .. فيزداد إحساسنا بالتبعة الملقاة علينا .. إزاء كتاب وهبنا الحياة .. لنعطى من أجله بعض هذه الحياة .

( ب )

هناك هدف أصيل يتوخاه القرآن الكريم في دعوته الناس إلى الحق :

يفهم من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً . وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [ الإسراء : ٩ ، ١٠ ]

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

فكل من تدبر القرآن بوعى كامل غير مشغول بزخارف الدنيا .. وتذكر بهذا التدبير عناصر الخير في نفسه .. وفيما حوله .. توفرت له رؤية واضحة للكون والحياة ..رأى الحق حقاً .. والباطل باطلاً .. دون لبس أو خفاء .. وانتهى به مطافه إلى الثبات على قيم الحق والخير .. بعيداً عن كل ما يحول دونها ..

وفى سبيل التمكين لهذه الغاية.. نرى القرآن الكريم يركز في دعوته على كل ما يقرب الناس منها . دون الدخول في تفاصيل شكلية لا تعين على فهمهما أو الالتزام بها.

ومن هنا .. نراه حين يتعرض لقصة الطوفان لا يصف أطوال السفينة وأبعادها.. وأشكالها .. مكتفياً بما يحقق غاية الدعوة ..

ولكن التوراة في سردها لقصة نوح عليه السلام .. تفيض في ذكر أبعاد السفينة وأوضاعها .. ففى الوقت الذى تغض الطرف فيه عن هذا الصراع الدامى بين الحق والباطل .. تأييداً للأول وتفنيداً للثانى .. وهو الأمر الذى فرضته عالمية القرآن التي يعرض الحقائق مجردة .. يتملاها الناس في كل العصور .

ومن تمام التدبر للقرآن الكريم أن نقف أمام التوراة في عرضها للقصة .

ثم نختم ذلك بآيات سورة هود .. التى انتهت بحديث الطوفان على نسق فريد.. تتحقق به رسالة القرآن .. وهدايته التى هى أقوم .

جاء في التوراة :

" كان نوح ابن خمسمائة سنة .. وولد نوح ساماً وحاماً ويافث " تكوين ( ص٦ )

" وكان في الأرض طغاة في تلك الأيام " ( ص ٦)

" ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شر كل يوم " (ص ٦) ؟

وقطعاً لدابر هذا الشر .. واختصاراً لطغيان الإنسان في الأرض :

" تكون أيامه – الإنسان – مائة وعشرين سنة " .

وكان ذلك رحمة من الله سبحانه وتعالى ..

ولكن التوراة ترد هذا الفساد الطاغى إلى الجنس بكل مضاعفاته :

إذ : إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا " تكوين ( ص ٦ ) .

ويتفرد نوح عليه السلام بالصلاح الذى ينال به رضوان الله :

" وأما نوح : فوجد نعمة في عينى الرب " ٦ .

و" كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله . وسار نوح مع الله وولد نوح ثلاثة بنين ساماً . وحاماً . ويافث .. وفسدت الأرض أمام الله . وامتلأت الأرض ظلماً .

ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إن كان كل بشر قد أفسد طريقة على الأرض فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد أتت أمامى . لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم .فها أنا مهلكهم مع الأرض . أصنع لنفسك فلكاً " ٦ .

و: قال الرب " :

" أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأنى حزنت أنى عملتهم " .

وبين يدى الطوفان يقول :

" فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حَيَّةً من تحت السماء .

كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين " .

" وقال الرب لنوح : ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك لأنى إياك رأيت باراً لدى في هذا الجيل " .

" ولما كان نوح ابن ست مئة سنة فصار طوفان الماء على الأرض فدخل نوح وبنوه وامرأته . ونساء بنيه معه في الفلك من وجه مياه الطوفان " .

ويلاحظ أن التوراة في سردها للقصة تحرص على تحديد الأرقام المتعلقة بعمر نوح عليه السلام .. وعدد أبنائه .. ونسائهم .. وميقات الطوفان .. وعمر الإنسان.

ثم إنها تطوى العمر كله .. لتبرز حادث الطوفان فجأة .. دون إشارة إلى الأحداث المتلاحقة على مدى عمره الطويل :

لقد أثبتت أن نوحاً " شار مع الله " وقد " فسدت الأرض " و " امتلأت ظلماً" .

وإذا بها تقول عقب ذلك :

" أصنع لنفسك فلكاً "

وأين تبعات " البر " و " الكمال " وهما صفتا نوح عليه السلام ؟ وباعتراف التوراة؟

أين مدلولهما الإيجابي على مسرح الحوادث .. والذى يصور رسول الله مجاهداً مكافحاً كل من لم يسر معه إلى مرضاه الله ؟

إن شيوع الظلم على هذا النحو .. يؤكد وقوع صدام طويل .. ومعاناة فئة ضد تيار جارف يسير في الاتجاه المعاكس فأين هى ملامحه ؟

بل إن الإله كما تصوره التوراة ليحزن أسفاً لأنه خلق الإنسان .. وأنه ليجعل من الطوفان عقاباً لنوع خلقه .. و لم يكن يدرى ماذا سيكون غداً ؟

تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ..

وليت شعرى .. هل يجد المجاهدون في سبيل الحق عزاء وسلوى أمام هذا السرد الذى لا يثير الحماس ؟ .. إذ يكتفى بمعنى السلبية إزاء الظلم .. على نحو يصيب الإله ذاته كما تصورته تلك العقول !

وهل يبقى الإله بعد ذلك متصفاً بالعلم والحكمة .. بعد أن جرت الأحداث فلم يحط بها علماً .. و لم تدبر سيرها حكمة ؟

إن حديث صراع دام ألف سنة إلا خمسين عاماً في سبيل إرساء دعائم الإيمان ؟

لا تجد لذلك إشارة في عبارة !

فى الوقت الذى تفيض في كشف معالم السفينة طولاً وعرضاً وعمقاً .. إلى حد يبدو فيه حجمها سيد الموقف كله .. بينما تتوارى معانٍ في الكفاح والصبر .. ما أحوج الناس إلى استيعابها ..

ولا يتعرض القرآن لمثل هذه الأرقام وإذا سجلها في موضع فإنما يجىء ذلك طبق خطته في إعداد النفوس .. وربطها بالمثل الأعلى .. بما أنهم خلفاء لله في أرضه .. خلافة تتقاضاهم مزيداً من التحمل من أجل تحقيق مضمون هذه الخلافه .

فلم تكن سفينة نوح عليه السلام في معرض الحديث عنه سبيلاً إلى التعريف بأصول النجارة مثلاً .

لكنها رمز مادى لمعاني نبغى أن نغوص وراءها .. حتى نعثر عليها ثم نلتزم بها.. ونعيد الجهاد في سبيلها كأجدادنا من قبل ..

وقد تعرض القرآن الكريم لعمر رسالة نوح عليه السلام فقال سبحانه في سورة العنكبوت : " ١٤ ، ١٥ " .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فهل توافق القرآن والتوراة حين قالت : إن نوحاً تسعمائة وخمسين سنة ؟

وهل كان تحديد الرقم تمسكاً بأمر شكلى يخرج بالقرآن عن خطه المرسوم في التركيز على المعانى الباقية .. دون التعرض للأرقام ؟

وقد أجاب المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز عن السؤال الأول : فبين أن هذا أحد المواطن التي أيقن عندها الكتابان .. وذلك في كتابه النبأ العظيم ص ٣٢ .

" وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن . حتى الأرقام طبق الأرقام .

فترى مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وفى سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة .

وفى رأيى : أنه لا توافق بين الكتابين هنا :

لأن القرآن يحدد عمر الرسالة .. بينما التوراة تتحدث عن عمر نوح .. أى أنه عليه السلام - كما يفهم من الآية الكريمة - لبث فيهم بوصف كونه رسولاً إليهم.. هذا الزمان المتطاول .. كما يفيد التعبير بالفاء في " فلبث " بعد قوله سبحانه " ولقد أرسلنا "

ثم قوله تعالى " فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " دليل آخر على أن الحديث يدور حول الرسالة والجهاد في سبيلها .. ثم عناد القوم في صدها .. على نحو أفضى بهم إلى الظلم الذى استحقوا به الطوفان .

ولقد جاء التعبير " بالألف " وبأداة الاستثناء في " إلا خمسين " تأكيداً لطول المدة المقتضية لاعتبار الرسول وصحبه بها والتسلح بالصبر الجميل خلال عمرهم القصير إلى جانب هذا العمر الطويل .. الذى ملأه نوح وصحبه جهاداً ومعاناة .. فأنت ترى القرآن حين يصوغ الأرقام إنما يستهدف التمكين لمبادئه أن تجد الطريق إلى نفوس الدعاة على مدار التاريخ [1] .. يقول ابن كثير :

(١) لم تقل الآية لبث فيهم ٩٥٠ عاماً ، ولكنها آثرت التعبير بذكر الألف إلا خمسين عاماً لما يشير إليه العدد - ألف - من طول المدة .

بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة سنة) [١] .

وإذا كان الطوفان نهاية مرحلة من الكفاح طال مداها .. فإنه يشير في ذات الوقت إلى حقيقة يذكرها الفخر الرازى حين يقول :

( إن الله لا يعذب على مجرد وقوع الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب .. فإن الظلم وجد منه ) .

وإنما يعذب على الإصرار على الظلم فقوله : « وهم ظالمون » . يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم .

**ولو كانوا تركوه لما أهلكهم :**

وحين يذكر القرآن السفينة على أنها آية للعالمين .فلم يكن ذلك من حيث طولها وعرضها وعمقها .

بل أنها دعوة إلى الخلق ليسيروا في الأرض فينظروا كيف بدأ الخلق .. كيف عاش الإنسان حياته الأولى على ظهر الأرض .. استصحابا لدروس هذا الماضى السحيق .. يمكن أن تفيد في المعركة بأفكاره وأشواقه .. التى تنحرف كلما أبطرها الغنى .. وتستقيم على الجادة في ضوء الإيمان بالله تعالى .

يقول الفخرى الرازى :

قوله تعالى : ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾

في الراجع إليه الهاء في قوله وجعلناها وجهان : أحدهما : أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففى كونها آية وجوه .

أحدها : أنها اتخذت قبل ظهور الماء . ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما شغل بها فلا تحصل لهم النجاة " ..

أى أن كونها آية يرجع إلى ظهور عناية الله وتدبيره في نجاح الخطة المرسومة .

ويمكن أن يعود الضمير إلى ( الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين ) .

---

(١) قصص القرآن : ابن كثير / ١١٩ .

يعني درساً باقياً يتملاه الناس لينسجوا على منواله ..

إن الطوفان في القرآن الكريم .. ليس موجاً متلاحقاً دمر على قوم نوح وجودهم .. وانتهت به المأساة ..

لكنه رمز باق لعقاب الحق سبحانه .. ما زال قائماً يترصد خطى الطغاة في كل جيل وقبيل ..

وحين يجيء كعقاب رادع قاطع .. فإنما يكون ذلك بعد جهاد مرير في الدعوة إلى الله. وبعد أن يبلغ العناد قمته ..

وإذا كانت سورة العنكبوت الأنفة قد أجملت في كلمات قصة هذا الصراع .. وهذه النهاية ..

فإن سورة هود تكفلت بتفصيل هذا الإجمال .. على نحو ما سنذكره في الفقرة التالية.. بعون الله .

* * *

# الطـريق إلى السـلام

يركز القرآن الكريم على قضية الإيمان بالله عزَّ وجلَّ .. وما يدور في سبيلها من عراك .. ينتهى حتماً بانتصار المؤمنين ..

وإلى هذه القضية يعود الخلاف بين نوح عليه السلام وابنه .. هذا الابن الذى رفض اتباع أبيه وتنكر للحق على لسانه .. بينما كل الدلائل تشير إلية ..

وإذا كانت الأشياء تتميز بضدها .. فإن فى بيان ما ذكرته التوراه متعلقاً بهذا النزاع شهادة للقرآن الكريم بأنه الكتاب المهيمن .. وهو أبدا فصل الخطاب :

تقول التوراة :

" وابتدأ نوح يكون فلاحاً .. وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر . وتعر داخل خبائه .. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه .. وأخبر أخويه خارجاً .

فأخذ سام ويافث الرداء .. ووضعاه على كتفاهما .

ومشيا إلى الوراء .. وسترا عورة أبيهما . ووجهاهما إلى الوراء . فلم يبصرا عورة أبيهما .

فلما استيقظ نوح من خمره . وعلم ما فعل به ابنه الصغير قال :

ملعون كنعان .. عبد العبيد يكون لإخوته "

وإذن .. فالخلاف بين نوح وابنه كما تذكر التوراة راجع إلى أمر شخصى .. وليس كما ذكر القرآن مردوداً إلى سببه الحقيقى وهو الدعوة إلى الإيمان ..

أى أن التوراة هنا تنسجم مع اتجاهها العام في عدم التعرض للصراع بين الحق والباطل .. لكنها حين تفصل الكلام في حديث ما .. فإنما يكون ذلك حول أمور جانبية قد لا تتصل بسبب إلى جوهر الإيمان .

والعجيب في حديث التوراة أنها تبرز النبى فى صورة لا تليق برجل يحترم نفسه.. فضلاً عن كونه نبياً ورسولاً .. بينما تتراءى صروة أبنائه أكرم حين تروعهم العورة المكشوفة فيحاولون سترها على هذا النحو الدقيق .. وهنا تتبدى روح اليهود العدائية المنبثة في كتبهم ضد كل دعوة إصلاحية على مدى التاريخ وكأنما تأبى طبيعتهم النكدة أن تستكين للحق على لسان الأنبياء .. لأن الأنبياء يمثلون القيد الضابط . لطبيعة نافرة تأبى إلا الانطلاق لتدمير المثل العليا .. والتفرد بالسيطرة الدموية .. على حساب الأبرياء من

"الأميين" الذين يريد لهم اليهود أن يعيشوا في أوطانهم غرباء .. لتبقى لهم الأرض .. على اتساعها .. لأنها في زعمهم وعد من الله لهم .. لا يتخلف أبداً ..

وعلى عكس هذا المنطق المادى الدموى يذكر القرآن – وقوله الحق – قضية الخلاف بين نوح عليه السلام وابنه . حين يقف الرسول في قمه صحته النفسية .. وهو يدعو ولده إلى الله تعالى .

وحين يقرر ابنه الالتجاء إلى جبل يعصمه من الماء . يرده أبوه إلى القوة الأعلى .. التي تمسك بزمام الأمور في مُدْلَهِمِّ الخطوب .

﴿ **لا عاصم اليوم من أمر ا لله إلا من رحم** ﴾ .

وبهذا المنطق البسيط البليغ تتهاوى نظرة القوم إلى الناس علي أساس من ظواهر الأشياء :

لقد ساد بينهم منطق الحس .. وبه عبدوا المحسات والمشتهيات ..

﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُم عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّم يَزِدهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً** ﴾ [ نوح]

وبالتالى جاء تقديرهم للإنسان على أساس ما يحوز من شارات بادية للعين .. دون النفاذ إلى حقائق الروح ..

وهو نفسه منطق الرجل المادى البخيل الذى قيل له :

ما ينقص مال من صدقة فقال :

بينى وبينكم الميزان !!

وإنك لتجد روح الإيمان سارية كالعصارة الحية . تربط كل حدث بصانعه وهو الحق سبحانه وتعالى .. وتستقطب كل القوى المؤمنة في جبهة واحدة . تتصدى لكل ما يدل به المترفون .. والمستغلون .

وهى الروح التي تضع الإنسان في مكانه المناسب :

فهو عبد الله يستمد منه وجوده وبقاءه .

ثم هو سيد للكون يسخره لمصلحة الدعوة ..

ولمستقبل الإنسان حيثما كان .. وإذا بهذا النشاط يتسع . ويغزو الحياة .. بدافع من طاقة الإيمان المنبثة في كيان الإنسان الجديد .. الذى حرره الإيمان من كل تبعية إلا لله وحده ، ثم أطلق طاقاته من مكامنها . فصنعت الأعاجيب .. وعمرت الحياة .

نلمس آثار هذه الروح في قول الحق سبحانه :

﴿ بسم ا لله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ .

﴿ لا عاصم اليوم من أمر ا لله إلا من رحم ﴾ .

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ .

﴿ قال إنما يأتيكم به ا لله إن شاء ﴾ .

﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ .

﴿ ا لله أعلم بما في أنفسهم ﴾ .

وإنك لتحس بكل كيانك أن القرآن من عند الله وأنه يخاطب الإنسان مباشرة .. فهو مسئول عن تنفيذ مبادئه في دنيا الناس :

( واصنع الفلك ) .

( يا نوح .. إنه ليس من أهلك ) .

بينما يتغير أسلوب التوراة .. فليس فيه تلك المواجهة التي يتفرد بها القرآن .. فى مثل قول التوراة :

( يقول الرب : أنا الرب ) ..

وعلى هذا الطريق يلتقى نوح عليه السلام مع إخوانه من النبيين والمرسلين :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [ الشورى : ٣ ] .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ الأنعام : ٨٤ ] .

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : ٨٤ ]

ولو تخلى عنهم الإيمان بالله سبحانه لحظةً انْهَارَ الْبِنَاءُ كُلُّه .

﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : ٨٨ ] .

بينما كانت هذه الركيزة سبب نجاه نوح وقومه المؤمنين . الذين بقى ذكرهم عبر الأزمان .. لأنهم كانوا مؤمنين :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَىَ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الصافات : ٧٥ ، ٨١ ] .

وعلى الطرف المقابل . نرى المترفين " يفسقون " عن هذا المستوى الفاضل .. الذى ارتضاه الله تعالى لعباده .. فيغرقون :

**( ثم أغرقنا الآخرين ) .**

وكأنما وضع قوم نوح بذرة الفسق التى امتدت جذورها من بعدهم :

**( وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين )**

لقد فسق أهل الكتاب فنالوا جزاءهم .. ثم حذر الله سبحانه وتعالى المسلمين من عاقبة أمرهم .

**﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾** [الحديد : ١٦ ]

فإذا جاء الفسق في القرآن وصفاً لقوم غرقوا في لذاذات الحياة إلى أذقانهم .. فإننا في نفس الوقت ندرك مسلك الطغاة من قوم نوح .. الذين تنكبوا طريق الحق .. وأفرغوا طاقاتهم على موائد الشيطان .. فطاروا هباء .. وبقى حديثهم ذكرى

**﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾** [الأحقاف : ٢٠ ] .

وهنا مفرق الطريق بين اتجاهين :

اتجاه يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا .. ولا يدخر من إمكاناته قوة يرصدها لخدمة القيم اللازمة لاستمرار الحياة .. فكان من المغرقين .

واتجاه آخر يجعل من الإيمان ركيزة يدير عليها حياته .. ومن التخطيط العلمى ثمرة لهذا الإدراك الواعى . المتصل بالله سبحانه وتعالى .

وقد تبدى ذلك في صنع السفينة التى كانت رمزاً خالداً للإعداد لنصر قريب ..

وما صاحبها من سخرية الأعداء على نحو اقترب بهم من العقاب الرادع .. بعد أن تحداهم المؤمنون العالمون وبذلوا أقصى جهودهم ليوم الفصل ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين بالقرآن خطاباً مباشراً - على ما بينا آنفاً - فإن ذلك يفرض عليهم اليوم مزيداً من الإيمان والعلم ...

إعداداً لمعركة فاصلة .. ننتقم فيها من عدونا الذى يجدد بسياسته طريق أسلافه الذين أقاموا حياتهم على فراغ . وادعوا أن الله رصد لهم أرض الميعاد .. فى نفس الوقت الذى يقتلون فيه سمعة الأنبياء .. بينما هم في طريقهم إلى تحقيق وعد الله ! ؟

لقد سار رسول الله نوح .. فحقق باجتيازه حلم الأجيال :

السلام والرخاء .

وذلك في قول الحق سبحانه :

**﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾** .

ولقد هبط عليه السلام في صحبة سلام من الله .. وبركات ازدهرت بها الحياة الجديدة بعد طول جهاد .

وذلك لعمرى غاية الوجود كله .. والتى لخصها القرآن الكريم في قوله تعالى :

**﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾** .

وإذا كان السلام .. أى الأمن من الخوف ثمرة الإيمان بالقوة الكبرى .

وكان الرخاء وليد العلم والتدبير الواعى .. فإن استمساكنا بحبل الله المتين لابد أن يكون صارماً وصولاً إلى غاية الغايات هذه ..

إنها العاقبة التي تشد إليها الرحال على محور من الصبر الجميل في كل مجال .. الصبر على كيد العدو وعلى شظف العيش من أجل الإعداد للمعركة الفاصلة .. وقد لخصه الحق سبحانه وتعالى فى : التقوى :

وليست التقوى شعوراً غيبياً يعزل الإنسان عن مسرح الحوادث ليمرح فيه الأعداء .

لكنه بالدرجة الأولى خصائص نفسية وعقلية . فردية واجتماعية . تنتظم الأمة كلها في كل مجالاتها .. لتكون عند مستوى مسئوليتها من الصبر .. والصبر الطويل .

يقول الحق سبحانه وتعالى مبينا عناصر هذه التقوى بالتى هى درجات إلى السلام والرخاء .

**﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ**

السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومعنى ذلك أن روح الإسلام يجب أن تتحول إلى أخلاق عملية ذات صلة وثيقة بمصلحة الناس . وإسهام فعَّال لحلّ مشكلاتهم ..

إن المال في يد الغنى .. يمكن أن يكون مدرسة هنا .. وملجأ هناك ..

وبذلك يتأكد معنى التضحية ومفهوم الصبر .. وهما عدة الكفاح في معركة المصير.

وهذا هو طريق السلام . لمن أراد السلام :

إن العالم المحروب يتلفت اليوم باحثاً عن السلام

ما هو ؟ ...

أين الطريق إليه ؟

وقد بلغ من حرص الدول على تحقيقه . أن بعضها قد لجأ أخيراً إلى تعيين أستاذ يسمى : أستاذ علم السلام ؟ !

والسلام ليس علماً يدرس ..

لكنة بالدرجة الأولى شعار ينبع من القلب . على أساس من الإيمان بالله تعالى ..

ولن يتحقق السلام – كما قيل – بمجرد تدريسه للأجيال .. ولكنه يتحقق عن ذات الطريق التى رسمها الحق سبحانه .. على نحو ما كشفت عنه قصة نوح عليه الصلاة والسلام ..

والطريق واضح والغاية محددة . والإمكانات متاحة ..

والنصر قريب بإذن الله .

* * *

# الفُلْكُ

# هذا الرمز الخالد

تحدثت التوراة فأسهبت في وصف الفلك بأطواله وأبعاده .. دون ما حاجة إلى الإسهاب .. الذى لا صلة له بمرامى القصة البعيدة في الدعوة إلى الحق والخير ..

أى أن السفينة – من وجهة نظرها – وسيلة أدت دورها واستنفدت أغراضها ..

ثم ضاعت فى لجة العدم .. مع المغرقين من قوم نوح عليه السلام ..ولكن السفينة في لغة القرآن الكريم شىء آخر :

إنها ذلك الرمز الخالد .. الذى يؤدى دوره في خدمة المعركة بين الحق والباطل.. تجاوباً مع أهداف القرآن العامة .. في الدعوة إلى الحق وإلى طريق مستقيم :

فهى في تضاعيف هذه الملحمة الكبرى مثل ناقة صالح .. وكلب أهل الكهف . والذبح العظيم في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وهذا الحوت في قصة يونس عليه السلام .. كلها .. كلها دلائل على طريق الحق.. تستعيد بها الإنسانية .. ذكريات عزازاً من عمرها . تستروح بها برد العزاء.. في عراكها الموصول عبر التاريخ ..

ويسترجع بها المؤمنون بخاصة .. عون الله لهم .. ورأفته بهم .. كلما اشتدت الأزمات .. وأظلم الأفق .

فالسفينة في قصة نوح عليه السلام .. وفى موضعها من القصة الطويلة .. باقية ما بقى هذا الصراع ..

وإن ملكيتها لتئول إلى العالم كله .. إلى من فى الأرض جميعاً حتى تقوم الساعة.. تبصرة وذكرة لمن أراد أن يذَّكَّرَ أو أراد شكوراً :

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الحاقة :

**﴿ إنا لمن طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾.**

الخطاب هنا يتجه إلى العالم كله .. تذكيراً بدور السفينة .. وتركيزاً على ما به صارت نعمة كبرى وهو " جريانها " فوق لجج الماء ..

لقد طغى الماء .. وباءت محاولات البشر بالخيبة أمام زحفه المدمدم ..

ولكن يد القدر الرحيمة .. تحملهم على ذات ألواح ودسر .. فكانوا في أمان وقرار.. بينما الجو كله خوف ورهبه ..

إنها لم تحمل فقط .. نوحاً ومن آمن معه .. بل هى قد حملت البشرية كلها .. من حيث كانوا في أصلاب الناجين ذراً مستكنا .

فالنعمة تلاحقهم .. ولو لم يروا هذه النعمة على الطبيعة !

وينبغى أن يستقيظ الضمير العالمى اليوم .. على صوت الذكرى يأتيه من مكان بعيد:

ليعلم الذين يصنعون الصاروخ .. ويفجرون القنبلة .. ويرصدون أسباب الدمار في كل أركان العالم .. ليعلموا .. أنهم .. ذات يوم . أحاطت بهم الأمواج .. ولكن الحق تبارك وتعالى أنقذهم من الغرق .. بألواح من الخشب .. صنعها على عين الله : رجل .. تعرض لسخرياتهم .. وظنوا يده الراعشة لا تقدر على شئ . بينما كانت اليد التى ظنوها مرتعشة . كانت سلاحاً من أسلحة القدر .. جاءت في الوقت المناسب .. وبتوفيق الله.. فكان فيها النجاء .. وكانت فيها أيضاً نهاية المتآمرين ؟!

ومن هنا يريدها الله سبحانه وتعالى ذكرا وذكرى باقية في الشعور دائماً :

﴿ **لنجعلها لكم تذكرة .. وتعيها أذن واعية** ﴾ .

هذه الأذن التى تصغى اليوم وبكل طاقاتها إلى هذا الرمز ..وجلالته ..

ثم تلاحقه بعين خيالها لترى سفينة عابرة للقارات - بالتعبير العصرى - وكيف لا وهى :

﴿ **تجرى بهم في موج كالجبال** ﴾ .

ويسأل المرء نفسه :

أيمكن لسفينة من هذا الطراز .. لا تسير قلقة " على " الموج .. لكنها تمضى " فى موج " متمكنه متزنه .. وفى موج غير عادى .. لكنه كالجبال . بل فوق الجبال كما يفيد غرق الابن الذى لاحقه الموج الغاضب العالى .. فطواه وما اعتصم به من شم الجبال.. أيمكن لمثلها أن تجىء مصادفة .. دون وعى سابق بهذا اللون من الصناعة.. ينتهى بهذا التفوق الصناعى ؟

إذا وجد العناد بقية من جرأة يرد بها مثل هذه البادرة .. قد بقى على الأرض منصفون يتحسسون منابع الحضارة هنا .. على أرضنا العربية منذ فجر التاريخ..وبالتالى.. فكل نهضه أتت .. وكل نهضة تأتى إنما هى وليد ترعرع في حجر هذه الأمه التى تعطى الحياة كل جديد .. فإذا تعامى الحاقدون عنها .. وتجاهلوا عطاءها المبذول .. تدخل القرآن الكريم .. ليحق الحق .. ويبطل الباطل .. حين يعيد إلى أمتنا ملامح دورها الأصيل في بناء الحضارة بآيات كريمة تنتفض من خلالها .. كما وصفها الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠ ] .

وفوق كون السفينة ذكرى . فهى آية يتملاها الناظرون ..

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ العنكبوت : ١٤ ، ١٥ ] .

آية للعالم كله .. طولاً وعرضاً .

ومن معانى الآية فى اللغة : البناء العالى . كما يشير قوله تعالى " أتبنون بكل ريع آية تعبثون " .

وإذن .. فهى قائمة على طريق الحياة .. تدعو الناس إلى الالتفات إليها .. وصولاً إلى ما وراءها من حقائق .

يقول صاحب مفردات غريب القرآن :

[ والآية : هى العلامة الظاهرة . وحقيقة لكل شىء ظاهر هو ملازم لشىء لا يظهر ظهوره .

فمتى أدرك مدرك الظاهر منها .. علم أنه أدرك الآخر الذى لم يدركه بذاته .

إذ كان حكمها سواء . وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات :

فمن علم ملازمة العلم – بفتح اللام – للطريق المنهج .ثم وجد العالم .. علم أنه وجد الطريق .

وكذا إذا علم شيئاً مصنوعاً .. علم أنه لابد له من صانع .

وما تزال الآيات الكريمة غضة تدعو الناس إلى عودة واعية .. حيث نشأت الحياة.. ونقل الإنسان خطاه الأولى على دروبها :

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ ] .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . دمر ا لله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ [ محمد : ٤ ] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [ آل عمران : ١٣٧ ] .

وهذه دعوة إلى السير والنظر .. تستدعى البشرية جمعاء لتعود إلى منابتها الأولى في محاولة للفهم .. وفقه التاريخ . دعوة إلى السير " فى الأرض لا على الأرض " أعنى توجيه الفكر الواعى المستبصر – لا مجرد العين المبصرة لظواهر الأشياء – ليغوص في الأعماق بحثا عن حقائق الوجود .. وعلى أى مثال كانت خطوة الإنسان الأول وكيف بدأ مسيرته المديدة ؟

إن رؤية أثار الأولين بالعين المجردة قد أتيحت للجميع .. ولكنها لم تصل بهم إلى قرار حاسم فيما تعلق بهذا الكون وصلة الإنسان به .. ومن هنا تستدعيهم الآيات الكريمة لينقلوا خطاهم عبر أفق أوسع .. وبنظرة أعمق .. تتركز في التعبير " كيف " .

﴿ كيف يبدئ ا لله الخلق ... ﴾ .

﴿ كيف بدأ الخلق .. ﴾ .

﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ .

﴿ كيف كان عاقبة المكذبين .. ﴾ .

" كيف تكونت الأسرة الأولى ؟ .. وكيف تكاثرت كما وصفها ربها ؟ .

" وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً "

وأين رست السفينة الجارية ؟ .. وعلى أى ساحل نصب الناجون خيامهم .. وباشروا حياتهم الجديدة ؟ . وكيف أمكن لهذه الأسرة الكبيرة أن تشق طريقها وسط مفازة رهيبة خلت من الحياة والأحياء ؟ .

كيف تم ذلك لولا تلك القوة الكبرى المهيمنة على الكون ؟ .

وهل يمكن الوصول إلى تلك " الآية " حتى يكون الوصول إليها بداية لمعرفة تقود إلى معرفة تعين على فهم أوسع لهذه الدنيا .. وبالتالى .. تتفادى بها الإنسانية بعض أسباب الشقاء التى تتهدد مستقبلها اليوم ؟ .

ويريد الله أن يتم نوره .. ولو كره الباحثون !

إنهم يستلهمون توجيه القرآن .. رضوا أم كرهوا ..

وإذا كان الله سبحانه ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر .. فإنه سبحانه ينصره أيضاً بمثل هذه المواقف التى يعلن عنها لسان الحال .. وإن سكت لسان المقال ..

وعلينا نحن المسلمين أن نسرع الخطى لنسبق هذه القافلة .. ثم نقدم إليها حقائق يمكن أن يلتقوا بها .. لو هم أصاخوا السمع مليا :

١- إن الوصول إلى بداية الرحلة أمر ممكن كما يفيده ذلك الاستنفار في الآية الكريمة.

٢- وقد استخدم " دارون " قانون السير والنظر عندما اختير ضمن مجموعة كلفت بالبحث عن : كيف بدأ الخلق .

٣- إن الذين ينكرون " البعث " يجدون في تضاعيف قصة نوح عليه السلام .. صورة للبعث الذى ينكرون :

فبعد هذا الدمار الشامل للحياة .. دبت اليقظة من جديد في كل أرجاء الدنيا .

ثم .. كيف كان عاقبة المكذبين ؟

كيف أرخت لهم الدنيا حبالها . فأعرضوا عن الحق وقالوا : من أشد منا قوة .. فبادوا.. ليستيقن الذين أوتوا الكتاب .. ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

ومن تدبير الله سبحانه وتعالى أن تجىء كلمة " الخلق " في قوله تعالى : " كيف بدأ" منصوبة .. ولا تجىء مرفوعة .. ليكون هذا " النصب " دليلاً يقود الخطى إلى ذلك الذى

خلق هذا الكون سبحانه .. وهنا تصل رحلة العودة إلى معرفة الخالق المدبر جلَّ جلاله .. المدبر هذا الكون بقدرته :.

ولو أنها جاءت " مرفوعة " .. فربما ظن ملحد أن الخلق هو فاعل البدء ولا خالق!.. وليس هناك أبعد من ذلك !؟

تماماً كما أضل ذلك النظر الكليل " دارون " فوقف عند المخلوق ونسى الخالق المصور سبحانه وتعالى ..

وقد سمعنا من جهود تبذل اليوم في محاولة للبحث عن سفينة نوح عليه السلام .. وذلك أمر مشكور ..

ولكن الغريب أن يعقد الحقد قلوب الباحثين هناك .. فلا يعلنوا أن ذلك استجابة لأمر القرآن الكريم .. الداعى إلى مثل هذه الرحلة الميمونة !!

٤- لم يصل " دارون " بعد تطوافه إلى نشأة الأنواع - وإن فهم عنه ذلك خطأ- .

لكنه وصل إلى تفسير لبقاء الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى ليكون البقاء للأصلح ..

ونقول لهؤلاء المفتونين بالفكر الغربى ممثلاص في "دارون" : إن البقاء للأصلح حقاً.. ولكن ما هو الأصلح الجدير بالبقاء ؟

إنه المؤمن الذى يعمل الصالحات .. ومن صور العمل الصالح أن نعود إلى الماضى نستقرئ أحداثه لنرى فيما نرى كيف قعد الباطل للحق كل سبيل على مدى ألف عام.. إلا قليلاً ..

وأخيراً .. جاء نصر الله والفتح ..وسوف تبقى السفينة .. رمزاً لطوق النجاة يتحدى به الحق سبحانه مكر الجبارين في الأرض .. الذين يظنون بقوتهم الظنون ..

والذين تجرى بهم الأوهام الكبيرة فتحلق بهم في الجو .. فيحسبون أنهم ملوك الفضاء وسدنته !

ثم تغوص بهم في البحار فيحسبون أنهم على شىء . بينما تستعد السفينة هناك للرحلة المنتصرة .. لأنها صنعت على عين الله جلَّ جلاله .

وسوف يظل رسول الله نوح عليه السلام مثلاً أعلى للعبد الصالح :

يجده ربه حيث أمره .. يشمر عن ساعد الجد .. فيعد للمرحلة العصيبة عدتها .. بين ألواح السفينة ودسرها .. وعلى وقع المطارق .. وحداء الإيمان .

وعلى جناحين من .. التخطيط.. والصلة بالخالق سبحانه .. يحلق في الأجواء العالية..

وتتبدل الأرض غير الأرض .. والناس غير الناس .. ثم يرسوا الطائر الطليق .. على بر الأمان .. يمسك بيده دفة التوجيه .. ليقود الحياة في الطريق اللاحب المبارك :

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣ ] .

## بنوة الروح .. لا بنوة النسب

يقول الله تعالى :

**﴿ وهى تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر ا لله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .**

**تمهيد :**

مع كفر الابن برسالة أبية .. وكان الظن أن يقف معه ضد الكثرة الباغية .. في زمان قل فيه الأوفياء ..

مع أن القذيفة تأتى الوالد من منطقة الأمان .. إلا أن غريزة الأبوة لا تموت ..

بل إنها وفى معمعان الخطر المحدق .. تحوط الابن العاق بهذا النداء .. وهذه النصيحة أن يركب معه في الفلك المشحون .. أى أن لحظة النجاة التى تأتى بعد ألف سنة إلا قليلاً .. هذه اللحظة التى طال انتظارها لم تُنسِ الوالد الرحمة .. بولده الذى هو امتداد حياته .. بل هو حياته التى تتجدد به بعد أن يأذن عمره بالرحيل ..

وإنك تحس حرقه الأشواق حين يناديه متودداً : " يا بنى "

وما في النداء من تصغير يشى بالضعف .. ضعف الولد .. وتحبب الوالد ..

ومع كفر الابن .. وإيمان الوالد . وما في ذلك من بعد المسافة بينهما .. إلا أنه ما يزال ابنه .. فما تزال هناك بقية من أمل في قلب الوالد .. هذا الأمل الذى يتوهج.. في

دوامة الخطر .. ولاحظ من رقة الخطاب .. وحكمة الحوار أنه لا يستغل لحظة الخطر ليقول له : " آمن "

ولكنه فقط يقول له :

اركب .. ومعنا .. لتنجو بجلدك ..

أما قضية الإيمان .. فلا مساومة عليها .. ولكي يظل الإيمان قوياً .. لابد أن يولد قوياً . بإرادة الإنسان .. ولا يتم ذلك إلا بالبرهان .

كما أن الآية الكريمة تقول :

﴿ **ولا تكن مع الكافرين** ﴾ ولم تقل : ولا تكن كافراً . ويعنى ذلك حماية سمعه من تهمة الكفر .. وإنما هو التحذير فقط من أن إصرارك على عزلتك .. واضعك .. مع رفاق السوء في المنحدر .. إلى الهاوية .

وهى لفتة للمحاور المسلم ألا يركز على العلة قبل أن يسلط الأضواء على البيئة المنحرفة التى تفسد في الأرض . حين تسرى علتها إلى الآخرين بالعدوى .

وعندئذ يكون العلاج جذرياً .. وليس دهاناً على وبر .

إصرار الابن :ولكن الرسالة الحكيمة من لدن الوالد .. لم تصل إلى الولد العاق أو وصلت لكن قلبه كان مخدراً ..

وأصر الولد على موقفه .. وذلك وقوله: ﴿**قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء**﴾

وكان هذا الرد دليلاً على :

**أن الابن كان متماديا في الكفر . مصراً عليه . مكذباً لأبيه فيما أخبر عنه.**

أى أن الابن قطع بالعناد حبل الحوار .. وأدار ظهره للنصيحة الراشدة ..

وكان جواب أبيه كما ذكر القرآن :

﴿ **لا عاصم اليوم من أمر ا لله إلا من رحم** ﴾ .

إن عصابة الشر تزين لأفرادها أنهم في حماية تنجيهم .. وتحميهم فلا تطولهم يد القانون .. ومن ثم يستكبرون .. من أجل ذلك يجىء الجواب حاسماً قاصماً ..

لقد ردد ابن نوح عليه السلام نفس المنطق المغرور . ممنيا نفسه بالحبل الذى سوف ينجيه ..

ويجيئه الجواب رادعاً .. صادعاً بالحق .. ثم كان في النهاية من المغرقين .

إنه ابن الرسول .. ومن صلبه .. ولكنه حين عالن أباه بإصراره على كفره .. قد استوى مع كل عاص وكل مارق ..والجزاء واحد بلا محسوبية .. ولا تفريق .

وها هو ذا .. يغوص في لجية الماء مع المغرقين و لم تنفعه أبوة أبية ..

لأن بنوة هى بنوة الروح.. لا بنوة النسب: إن الأولاد الأشداء .. المصانع الدوارة.. والحقول المترامية .. كل ذلك هباء .. ولن يكون لحظة الخطر مانعاً من قدر الله تعالى .

لقد كان الجبل بالأمس .. يحمى من الغرق ..

وكان الأبناء .. والأرض .. والذهب .. حصوناً يلوذ بها الظالمون .

أما اليوم .. فإن الموازين تنقلب .. وأقدار الناس تتفاوت .. فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله تعالى رحمة تنشر ظلها على المؤمنين ..

كل هذا المتاع الأرضى يتلاشى .. ويهجم الموج . ويتوقف الحوار بعد ما رفض المدعو أن يصغى إليه وأن يستوعبه . ﴿ **وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ .

**أما بعد :**

فمع صاحب الظلال وهو يستنبط الدرس الجليل من هذا الموقف العظيم :

[ من شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة – وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى – أن ينشئ عالماً إنسانياً مفتوحاً .

يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس . والألوان واللغات . والأنساب والأوطان .

يجيئون إليه بكامل حرياتهم واختيارهم الذاتى :

لا يصدهم عنه صاد .. ولا يقوم في وجوههم حاجز . وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية وتجتمع في صعيد واحد . لتنشئ حضارة إنسانية . تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية .

ولا تغلق دون كفاية واحدة . لسبب من اللون أو العنصر أو النسب أو الأرض .

يقول الله تعالى :

﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من**

**الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾**

وهكذا يجف الماء المنهمر .. ويسكن الطوفان العاتى .. ولكن غريزة الأبوة ما تزال تفور .. ولا تهدأ .. إنه الرباط الفطرى الجبلى.. والذى يبقى مع الأخطار .. بل فوقها..

وهذا هو ذا نوح عليه السلام يعبر عن ذلك بما حكته الآيات الكريمة ..

لكن السؤال الآن :

كيف يرجو نوح عليه السلام ربه إنجاء ولده بعدما رفض الابن نصيحة أبيه .. ثم حال بينهما الموج ؟

وكيف يتم ذلك والحال أنه تعالى لما وعده بإنجاء أهله استثنى سبحانه منهم من سبق عليه القول .. وكان عليه أتي بتوكل على الله حق توكله .. ويعلم أن كل من كان من أهله مؤمنا فإنه ينجو من الغرق لا محالة ؟

كان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح .. وأن كلهم ليسوا بناجين .. وألا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم ؟ أى من المغرقين لا من الناجين .

والجواب كما نبه المفسرون :

١- أنه عليه السلام طلب إماطة الشبهة .. وطلب إماطة الشبهة واجب .

٢- والظاهر أن ابنه كان منافقاً .. فلذلك اشتبه أمره على نوح عليه السلام .

٣- وقد حملته شفقة الأبوة :

أ- على دعوة إبنه إلى ركوب السفينة

ب- فلما حال بينهما الموج لجأ إلى الله تعالى في خلاصه من الغرق . فعوتب على ذلك .

ويجىء الجواب حاسماً من لدن الحق تعالى .

**﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾**

لماذا ؟

﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ .

[ وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب .وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب – وإن كان حبشياً وكنت قرشياً – لصيقك وخصيصك .. ومن لم يكن على دينك – وإن كان أمس أقاربك رحماً – فهو أبعد بعيد منك ] [١] .

وفى هذا المعنى نذكر ذلك الحوار الخاطف بين رجلين :قال أحدهما للآخر .

أيهما أقرب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : الأقرب منى : أخى إذا كان صديقى!

قال ابن عباس :

الصديق أقرب ..

ألا ترى استغاثة الجهنميين حين قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٠٠، ١٠١] .

فقد استغاثوا بالصديق و لم يستغيثوا بالآباء ولا الأمهات

## الحكم .. ودليله

إن الحق تعالى هو الذى يحكم .. ولا معقب لحكمة ..

ومع لك فهو يعلم كل محاور مدافع عن الحق ألا يكتفى بأنه على الحق .. ولابد أن يعزز ذلك بالدليل .. بدليل أنه تعالى يعلل حكم انتفاء أهلية الابن بقوله تعالى :

﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ .

فالابن نفسه .. عمل غير صالح .. فهو موغل في الضلال .. ولأنه غير صالح فهو مشمول بالقاعدة التى تؤكد أنه : نجا من نجا بالصلاح .. والصلاح وحده .

## الاعتراف بالحق

إن رجاء نوح عليه السلام ربه أن ينجى ولده إشارة واضحه إلى قوة الرابطة الأسرية التي يجب ألا تنسى أبداً. هذا الرباط الذى يجب الاستمساك به.. والحرص عليه . وتعاهده بالتقوية.. وملاحقته بالإصلاح. لتبقى الأسرة وحدة متماسكة يتخلق منها المجتمع الصالح.

---

(١) الزمخشرى .

وإذا أمكن لاختلاف الرأى أن يباعد بين فريقين فإنه في مجال الأسرة أو العائلة ينبغى أن يضعف أثره .. وأن تبذل المحاولات لرأب الصدع واجتماع الشمل ..

أما حين يعظم الخلاف . ليكون حول الحق ذاته . كأساس للحياة .. فكل علاقات الأسرة يومئذ تتوارى .. حفاظاً على الأسس القويمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى . وخلق من أجلها الذكر والأنثى ..

ولعل نوحاً عليه السلام قد رتب " الأهلية " على " البنوة " فقال ما قال . لكن البنوة وبخاصة في حياة المصلحين .. إنما تترتب علي الإيمان والعمل الصالح .

وإذا .. فبنوة النسب في غيبة الإيمان لا تجدى وقد طوحت بالولد مع المغرقين ..

بينما وحد الإيمان بين الرسول والذين آمنوا معه بفضل الإيمان الذى يعلو فوق كل رابطة .. والعمل الصالح كنتيجة لهذه الطاقة المودعة في الصدور .

ولم ينف الحق سبحانه بنوة الولد .. كما لم ينف العلم بها أيضاً . غاية ما هناك.. أن البنوة اليوم بنوة الإيمان .. وعلى دعائمه تقوم الأهلية .

ويبادر نوح عليه السلام فيعترف بالحق الذى يلفت الله سبحانه نظره إليه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيَ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧ ] .

إن الرسول .. وقد فقد ولده العاق .. لا يكون خاسراً .

لكن الخسران يكون إذا حرم غفران الله وعفوه .

وعلى أساس من هذه القاعدة .. يتنزل عليه رضوان الله تعالى : ليزامله بقية عمره بقدر ما يتخلى عن أناس حادوا عن الطريق فزايلهم رضوان الله .

## نسب الإيمان

ويظل نسب الإيمان هو العروة الوثقى الرابطة بين المسلمين .

وذلك معنى جليل طالما ركز القرآن الكريم عليه .. ليبقى الحق أبداً فوق كل علاقة أرضية .

فإبراهيم عليه السلام . يناظر أباه . داعياً إياه إلى الإيمان بالله تعالى ..

﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ .

وفي قصة نوح عليه السلام .. نلاحظ رجاءه ربه تعالى أن يرحم ولده .

فلما نبه إلى أنه قد تجاوز حدوده قيل له :

**﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ﴾ .**

إنه إذا كان موت الأحبة غربة .. فإن موت الحق أشد اغتراباً .

فالحبيب .. واحد .. نوريه التراب .

أما الحق فهو القاعدة التى ترتكز عليها الحياة .. وبدونه تظل طاحونة الهواء .. تدور بلا عائد

يقول صاحب المنار :

[ إن الإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة والأنساب وقد يختلف باختلاف استعداد الأفراد .

وما يحيط من الأسباب وما يكونون عليه من الآراء والأعمال .

ولو كان بالوراثة لكان جميع ولد آدم كأبيهم . غاية ما يقع منهم معصية تقع عن النسيان وضعف العزم . وتتبعها التوبة واجتباء الرب .

ثم لكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين صالحين.

إن هؤلاء المغرورين بأنسابهم من الشرفاء الجاهلين بكتاب ربهم وما يليق بعظمة الربوبية . وعلو الألوهية الجاهلين بسنة نبيهم الذين يزعمون أنهم أفضل من العلماء العاملين والصالحين المصلحين والأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين وإن كانوا عراة مما كسا الله هؤلاء الأصناف من لباس التقوى والدين وأنهم يستحقون وحدهم سعادة الدنيا والآخرة بنسبهم .. أولئك هم الجاهلون . أ ، هـ .

وكثيراً ما ركز القرآن الكريم على هذه الفكرة .. فكرة استبعاد مظاهر الحياة .. ومنها الوالد والولد . ليسلم الناس وجوههم لله وحده.. جهاداً في سبيله وإعلاء لكلمته.

من أجل ذلك يعود نوح عليه السلام مسلماً بهذا المبدأ .. معتذراً إلى ربه تعالى .

وهو درس لعلماء .. قد يكونون أجلاء .. لكن علتهم كامنة في استبدادهم بآرائهم.. إلى حد أنهم قد لا يحبون الناصحين .

وإذا ذكروا .. لا يذكرون .

## شاهد من القرآن

بين يدى غزوة بدر تمنى المسلمون أن يتلقوا العير . لكثرة المال وقلة الرجال .

لقد آثروا الدنيا .. بينما الحق في خوض المعركة .

من أجل ذلك تنعى الآية الكريمة عليهم ذلك الاتجاه واضعة مبدأ إيثار الحق . والالتزام به بعدماً تتحدد معالمه . ففى المراحل الأولى قد يكون الجو غائماً .

أما إذا تبدد الغيم .. وظهر الحق .. فالجدال فيه عندئذ جبن لا يليق بأهل الإيمان.

## من إفرازات الاستبداد بالرأى .

من نتائج استبداد الإنسان برأيه أن يصبح الرأى مع طول العناد جزءاً من كيان المجادل .

بحيث يخيل إليه أنه يدافع عنه .. مع أنه في الواقع يدافع عن ذاته .

إن الرجل الذى يدور مع رأيه .. معرضاً عن أراء الآخرين يظلم نفسه أولاً وأخيراً .

وإذا كانوا يقولون :

لا يعرف صديقه .. من لا يعرف إلا هو ..

فلابد من تعدد الأصدقاء .. وتنوع التجارب لتتسع المدارك وبالتالى يصح الحكم على الرجال .

وكذلك الأمر في مجال الرأى :

فمن لا يعرف إلا رأية .. فإنه لا يعرف .. حتى رأيه . فإنه لكى يعرف رأية لابد من معرفة كامل مستوعبه لآراء الآخر .. حتى إذا جادل .. جادل عن بينه .

## لا مجال للشك

ويبقى أن نجيب عن هذا السؤال ..

هل كان طلب نوح عليه السلام هنا . لونا من الشك ؟

والجواب بطبيعة الحال .. لا .

فنوح عليه السلام لم يشك .

أو شك فعلاً .. لكنه ليس الشك الذى يتحلل إلى : قلق ... وتمزق .. وضياع .

وإنما هو حالة تدفع الإنسان إلى تحرى اليقين .. وتلمس مواطن هذا اليقين . عن طريق البحث والنظر .. حتى يرسو به السفين على شاطئ الإيمان .

إنه الشك الإيجابى .. وليس هو الشك السلبى . ومن هذا اللون المحمود في مجال البحث والنظر .. ما حكاه الإمام الغزالى في قوله :

[ إن مطلوبى هو : العلم بحقائق الأمور ]

فلابد لى من العلم اليقينى الذي ينكشف به المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب . ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم .

ولا يتسع القلب لتقدير ذلك .

بل الأمان عن الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً لليقين مقارنة .. بحيث لو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من قلب الحجر ذهباً . أو العصا ثعباناً .. لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً .

فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة بحيث لو قال قائل : بل الثلاثة أكثر .. بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً .. وقلبها وشاهدت ذلك منه . لم أشك بسببه في معرفتى .. ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ] .

* * *

# فى سورة الإسراء

## عندما يرتفع الدعاة بمبادئهم

إذا كان الله عزَّ وجلَّ يضرب للمشركين الأمثال من خلال قصة نوح عليه السلام.. فإنه - سبحانه - لايعفى أهل الكتاب - رغم مكية الآيات - من مسئولية ذلك الذى يتلى .. وضرورة تحديد موقفهم منه .. بل إن كونهم أهل كتاب يؤهلهم للفهم .. ويقربهم من الإيمان .. دون المشركين السائرين بلا دليل .

وإلى بنى إسرائيل يتجه تحذير خاص في قول الحق سبحانه :

﴿وَآتَيْنَآ مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [ الإسراء : ٢ ، ٣ ] .

فحيث كانوا ذرية المؤمنين من قوم نوح عليه السلام .. فعليهم أن يستعيدوا تضحياتهم في سبيل التوحيد .. وأن يذكروا جهدهم المبذول مع رسولهم ضد الوثنيين الذين لا يدينون بكتاب .. على أن يكون ذلك الموقف عملاً إيجابياً يشكرون به الحق سبحانه .. الذى منحهم نعمة التوحيد . والذى أنجاهم من الغرق مرتين :

مرة مع موسى عليه السلام .. وقبل ذلك .. فى معية أخيه " نوح إنه كان عبداً شكوراً " ومن شكرهم لله سبحانه أن يكونوا في صف المؤمنين .. لصد عدوان يستهدف تراث المرسلين جميعاً .

وتذكير بنى إسرائيل بنوح العبد الشكور.. وبمن معه من المؤمنين لم يكن عفواً.. إنه يبرز مسئوليتهم الكبرى في هذه المعركة الدائرة بين المشركين ومحمد عليه الصلاة والسلام..

ويؤكد هذه المسئولية مجيء الآية عقب حديث الإسراء .. وقبل الكلام عن إفسادهم في الأرض مرتين .. الأمر الذى يفرض عليهم الخروج من عزلتهم المريبة .. التى يدينها التاريخ .. ويكشفها الواقع الماثل .

وإذا لم يكن ذلك .. فقد مضت سنة الأولين كما حكتها سورة الإسراء ذاتها :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً ﴾ .

وبنو إسرائيل أدرى الناس بهذه الأحداث وبما صارت إليه من نتائج لم تغب عنهم يوماً .

ومع قصة نوح عليه السلام .. تذكر قصة بنى إسرائيل وحدها .. وذلك في سورة يونس التالية في النزول لسورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ مُوسَىَ وَهَارُونَ ﴾ .

﴿ فَمَآ آمَنَ لِمُوسَىَ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ . ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ .

وهو يرشح ما قلناه من ضرورة تقدم بنى اسرائيل.. ليقولوا كلمة الحق في هذا الأمر الخطير .

فالحديث عن طغيان قوم نوح .. وعن طغيان فرعون وملئه من شأنه أن يستنهض همم بنى إسرائيل .. بالذات .. لإحقاق الحق .. وإبطال الباطل .. ولكنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم ..

# في سورة المؤمنون

# رقصة الطائر الذبيح

لم ينكر الكافرون أن يكون بعض الطين إنساناً وبعض الماء علقة .. تستحيل مضغة.. فعظاماً .. يسكوه الله تعالى لحماً . لم ينكروا هذه القضايا رغم ما فيها من إعجاز .

ثم ها هم أولاء ينكرون أن يكون بعض البشر رسولاً نبياً فيسلبونه خاصية التبليغ عن الله سبحانه . صادرين في ذلك عن ظنهم الخاطئ .. والذى حكاه القرآن الكريم في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [ المؤمنون : ٢٤ ] .

[ وما أعجب شأن الضلال : لم يرضوا بالنبوة لبشر .. ورضوا بالألوهية بحجر] [١]

وليت الناس حين يرفضون أو يقتنعون .. يفعلون ذلك لأن عقولهم انتهت بعد طول تطوافها إلى الاقتناع أو الرفض ..

وحين يكون الأمر كذلك فإن الأمل في إيمانهم يبقى .. في انتظار اللحظة التي يقودهم فيها إلى الحق .. اليوم ..أو غداً ..

أما إذا صار الأمر إلى الهوى المتقلب .. فإن الأمل في العلاج يموت في الصدور .

وإذا صارت سيرة الآباء ومسيرتهم مرجعاً للقوم في كل ما يفعلون ويرفضون.. ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون ولا يهتدون ..

فإننا في هذا الوقت تجاه تجربة لابد من عرضها أمام الأجيال .. كنموذج لصنف من المعاندين .. يتصدى لدعوة الحق ما دامت هناك حياة .. ليستوعب المؤمنون التجربة على نحو يكتسبون به مناعة وصبراً كلما التقوا بهذا النموذج يشغب عليهم . إمساكاً لصبرهم أن يزول .. في معمعان معركة تواكب الحياة ولن تضع أوزارها أبداً– ونحن اليوم أمام جانب من قصة نوح عليه السلام مع قومه .. وهم يواجهونه بمثل هذه العقلية المتهافتة .

يقول الحق سبحانه في سورة " المؤمنون " :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـَذَا فِيَ آبَآئِنَا الأوّلِينَ ﴾ [ المؤمنون : ٢٤ ] .

---

(١) الزمخشرى .

إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين .

ولماذا يفر القوم من مواجهته اليوم . وكانوا قبل يقعدون له بكل سبيل ؟ .

كيف تخونهم شجاعتهم اليوم فيبحثوا عن الناس الذين يستعدونهم اليوم على رسول الله.

لقد سرت في دعوته اليوم نبرة جديدة أصابت القوم بدوار .. فراحوا يرمون بالسهم الأخير . في محاولة يائسة للتخفيف من حدته :

لقد كان لهم بالأمس ناصحاً أميناً :

يخاف عليهم " عذاب يوم عظيم .. وأليم .

[ إنى لكم رسول أمين ] .

وكان يقول لهم متلطفاً :

" ألا تتقون " ؟

" فاتقوا الله وأطيعون " .

لكنه اليوم يبدو صارم الملامح .. عالى الصوت . يدمغهم برذيلة الجهل والعمى..

أفلا تتقون ؟

أعميتم .. فلا تتقون .

أجهلتم .. فلا تتقون ؟ !

وعندما يحسون بحرقة التهمة التى يعرفونها .. ولا يعترفون بها .. يستعدون الجماهير عليه .. في محاولة للوقيعة بينهم وبينه ..

لقد أزعجهم الاستفهام الإنكارى في قوله :

أفلا تتقون .. فراحوا يهرفون .. لعل في ضجيج العامة المنطلقة على غير هدى ما يعفيهم من هذا الشرك الموضوع .

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ويتصدى للشغب عليه " أعيان " قومه ممن تضربهم التهمة مباشرة .. لكنهم لا يقولون : بشر يتفضل عليكم .

لأنهم يعلمون أن يشاهده العامة من بساطة الرسول وتواضعه ينفى التهمة النكراء.. ويختارون أن يقولوا : " يريد " أن يتفضل عليكم .. فهو يضمر نية التفضيل فلا

تشاهدونها.. أى أنهم يهربون إلى معنى لا يخضع للملاحظة في محاول لتضليل الناس .. ثم هو لا يريد الفضل طبيعة .. لكنه يريد " التفضيل " تمحلاً وتكلفاً !!

ومن كان كذلك .. فهو يتطلع إلى منزلة لم ترشحه لها عراقة النسب وقوة العشيرة.. ووجاهة المنصب ! والنتيجة التى خلصوا إليها : أنه مجنون .

بل هو وحده المجنون كما يفيد التعبير القرآنى ( **إن هو إلا رجل به جنة** ) .

وآية ذلك أنه .. بشر .. وبشر مثلكم .. يحاول أن يتبوأ مكانة لا يحلم بها بشر .

والأمر أن تدعوه وشأنه .. لأنه مشكلة يتكفل الزمن القريب بحلها : ( فتربصوا به حتى حين ) .

ولا بأس أن تخدع الكثرة الكاثرة بهذه الحملة الظالمة .. لا بأس أن ينفض الناس من حوله .. إلا القلة المؤمنة .. التى تؤازره وتنصره ..

وإذا كانت قوة الأمة لا تقاس بمقدار ما يكثر فيها من عقائد .. بل بعقيدة واحدة سليمة الجوهر جليلة الهدف . فكذلك الشأن هنا :

إن كثرة كغثاء السيل لا ينظر الله إليها .. لكنه سبحانه مع القلة المؤمنة الواعية بالنصر والتأييد .. ما دامت تستذكر في محنتها القوة الكبرى .. وتتجه إلى القدر الأعلى طالبة نصر الله والفتح ..

وكان ذلك شأن رسول الله نوح عليه السلام عندما لجأ إلى الله سبحانه ضارعاً خاشعاً : ( رب انصرنى بما كذبون ) .

إنه لا يطلب النصر لأنهم أهانوا شخصه .. وجرحوا سمعته .. بيد أنه طلب النصر لمصلحة الدعوة التى كذبوها .. وافتروا عليها .. فالأمر أولاً وأخيراً يدور حول مستقبلها.. فالدعاة يموتون وتبقى رسالات الله من بعدهم لا تموت ..

ويجىء نصر الله والفتح .. في الوقت الذى تشتد الحاجة إليه .. وتتطلع القلوب إليه:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

وتكرير النهى عن مخاطبته سبحانه في شأن الذين ظلموا بعد ذكره في سورة هود.. يؤكد قضية مهمة في حياة المجتمعات على مدار الزمان .

فالذين يظلمون أنفسهم باتباع الهوى . الذين يضعون إمكاناتهم في خدمة إبليس.. فيسرقون ويرتشون . ويعرضون مصالح الوطن للخطر .. فيضعفون بذلك ثقة المؤمنين بالحاكم المسلم .

ينبغى ألا تأخذ الحكام بهم رأفة في دين الله .. وقد ترتفع من ضمير المجتمع اصوات مخلصه بضرورة المساءلة الشرعية لكل منحرف .. يميل بميزان العدل حيث أراد له الشيطان.. من حيث كان السكوت على هذا الانحراف .. وهذا الظلم هضماً لحق الصالحين في أن يعيشوا .. وضياعاً لقيمة العدل .. تلك الفضيلة التى اقام ا لله الكون عليها .

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [ المؤمنون : ٨١ ] .

والأمر من ناحية أخرى درس للأمة أن تجعل من النصر على الطغاة عيداً تذكر به نعمة الله في نجاتها منه .. بصورة تتفق وروح القرآن البادية هنا في الآية الكريمة . ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [ المؤمنون : ٢٨ ] .

فالحمد .. كل الحمد .. لله وحده .. ومطلوب من الإنسان أن " يقول " ذلك.. أن ينطق به صراحة .. فيستبعد كل حول وطول في هذا الباب ليكون الأمر أولاً وأخيراً لمن يستحق وحده الحمد ..

لأنه الذى نجى .. ونصر .. وليست النجاة منوطة بأسلحة من هنا أو هناك .

كما وأنها ليست وليدة تدبير بشرى لا يساوى عند الله جناح بعوضة .. إنه الارتباط الوثيق عن طريق الذكر العميق لله سبحانه في أوقات قد تخدر الأمة نشوة النصر فتنسى مصدر النعمة الحقيقى ..

وقد يقودها النسيان إلى نسيان .. فتعود القهقرى .. وتنحل عروة الإيمان في نفوسها من حيث لا تدرى .. وإذا ارتبطت النجاة برجل فلأنه التزم بهذا الخط وسار في نفس الهدف ..

ورغم أن رسول الله نوحاً عليه السلام .. وقف عمر الطويل من أجل هذه اللحظة الموعودة .. لكنها لم تنسب إليه .. ولم يطلب من الأمة أن تعيد الأمر كله أو بعضه إليه.. كفاء هذا الكفاح الطويل .

لكن الحمد لله وحده .. صدق وعده .. ونصر عبده .. وهزم الأحزاب وحده !

ولا تنسيه نشوة النصر أن تمتد به الآمال عبر المستقبل ..

إنه يطلب من الله سبحانه وتعالى منزلاً مباركاً وفير الخير .. عظيم النتاج .

منزلاً يثبت فيه بعد هذا التطواف البعيد .. وتتوفر فيه حاجات المؤمنين .. ليمكن للحق أن تمتد منه جذور في الأرض .. وللمحقين أن يتمكنوا منها ويستعمروها خلفاء لله فيها يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..

وبهذا المفهوم تبقى قصة نوح عليه السلام " آية " يتملاها الناس .. يقتربون منها كلما ابتغوا إلى ذلك سبيلاً﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [ المؤمنون : ٣٠ ] .ولعل من المفيد هنا أن نثبت تعقيب أستاذنا الدكتور محمد سعاد جلال على الآيات الكريمة بما يجلى ما أشرنا إليه. "وفي الآية تنبيهان مهمان " :

**أحدهما :**

أنه لا تجوز الشفاعة ولا الوساطة للظالمين الذين يرتكبون الجرائم في النفس .. أو العرض .. أو المال .. أو الدولة لا عن خطأ وجهالة .. ولكن عن عمد وإصرار .. وعن إسقاط مقصود منهم للحرمات الثابتة شرعاً . واستهانة بها في أنفسهم . فإن هؤلاء ظالمون أشرار .

والشفاعة لهم – إذا أخذوا بجرائمهم – إجرام صريح . لأنه عمل يزيد فرصتهم في معاودة ظلمهم وإجرامهم .

وأشد غوائل الأمم تمكين مجرميها من كسر قوانينها انفساحاً لإجرامهم فيها بشفاعة الشفعاء :

والغرق . أو الحرق . أو السيف هو الرحمة الواجبة على الإمام في حق الأمه في معاملة هؤلاء .

فإن رحمة الجماعة بصيانة حقوقها من كيد المجرمين . أحق عقلاً وشرعاً من رحمة فرد أو أفراد .

بل إننا لنرى في قصة نوح هذه أن الله أهلك الأكثرية المجرمة من أجل الأقلية الصالحة.

وهو ملحظ جدير بنظر طويل . وفقه كثير :إن الظلم ينتج الظلم . والجريمة تلد الجريمة .. ورفض الوساطة للظالمين والمجرمين عن ظلمهم هو تعقيم لنسل الجريمة من أن ينمو ويزداد .

**وثانيهما :**

أن الخلاص من ظلم الظالمين .. لمن ألقى عليه ظلم لا يتم إلا بعون من الله له .

فعلى من حظى بهذه النعمة الكبرى. أن يحمد الله حمداً كثيراً لأنها محض رحمة الله به.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول من يجنى عليه اجتهاده .

**أهمية الدليل التاريخي [(١)] .**

يقولون تنويها بالماضى والإفادة من عبرة .

[ قضية هدم الماضى .. هى محاولة ساذجة لهدم المعبد فوق رءوس أصحابه .

والذين يحاولون هدم الماضى ينسون أن الماضى هو الذى بنانا .. وأن هناك فارقاً كبيراً بين خشونة الأساسات الداخلية المدفونة ونعومة الطلاء الخارجى الذى نتباهى به.

فالطلاء قد يخفى خشونة الأساسات في الظاهر .. ولكن هذا الطلاء نفسه.. ما كان ليبقى لو لم تكن هذه الأساسات تحمله وتحميه من الترهل والسقوط .

والتنكر للماضى هو بداية لسقوط حاضر " لقيط " إن هذا البناء الاجتماعى يمكن أن تتغير نوافذه . وأبوابه . وألوانه ..

ولكن . تظل الجذور هى الجذور .. والأساس هو الأساس .. مهما تعددت جراحات التجميل ] ..

هذا هو تصور الباحثين لأهمية التاريخ .. والرجوع إليه تلمساً للعبرة .. والخبرة..

وقد كان للتاريخ دوره في توجيه الدعاة إلى الله تعالى.. حتى يتأملوا .. ويستنبطوا..

يتأملون .. بالبصر . والبصيرة معاً .

البصيرة التى من شأنها ربط الأسباب بالمسببات ..

---

(١) تعليقات حديدة .. كأخت لها من قبل . يرجى أن تضيف حديداً ..

والأحداث الظاهرة .. بأسبابها الدفينة . بالإضافة إلى ما يستهدفه القرآن الكريم [من تخريج القصص بدلائل التوحيد لأجل الاعتبار والتنشيط ] أو كما قال المفسرون .

وقصة نوح عليه السلام أحد الأدلة الشاهدة بصدق محمد عليه الصلاة والسلام .

فهي دليل تاريخي .. فله أهميته .

أ- فقد يمارى الجاحدون في صحة الأدلة العقلية .. لكن الحقائق التاريخية لا ينكرها إلا معاند .

ب- ثم إنها وسيلة من وسائل إعداد المجادل عن الحق نفسياً : حتى ترتفع معنوياته في مواجهة باطل يبيت بليل .. وذلك بالربط علي قلبه في لقائه مع التحدى الوثنى ..

جـ- وطول نفس نوح عليه السلام درس في الأناة والاصطبار والذى يؤكد أنه كان من الممكن اجتياح الباطل بالضربة القاضية .. لكنه تعالى يمهلهم .. ومن دروس هذا الإمهال ألا يتعجل الدعاة الثمرة قبل نضجها .

## إلى أى شيء يدعوهم .

إنه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده .. فلا معبود سواه لماذا ؟ يقول الرازى :[ إن عبادة غير الله لا تجوز .. إذ لا إله سواه. والعبادة إنما تكون لمن أحسن وأنعم بالخلق والإحياء. وما بعدهما. فإذا لم يصح ذلك إلا منه تعالى .. فكيف يعبد ما يضر ولا ينفع؟]

وكأنما يقول لهم :

[ تتركون عبادة واجب الواجود .. ثم تعبدون ما ليس بهذه الصفة بل هو في أخس مراتب الإمكان وهى : الجمادية ؟ ]

أفلا تشعرون ؟ أولاً : حجم الجريمة التى تقترفونها .. وثانيا : ما يترتب عليها من عقاب أليم ؟

أفلا تخافون عقوبة الله الذي هو ربكم .. إذا عبدتم غيره.مما ليس من استحقاق العبادة من شيء ؟

والتحذير من العقوبة فى حد ذاته نعمة كبرى .. من شأنها أن تحول بينهم وبينه مباشرة أسبابها ..

ولكن القوم كانوا أعداء أنفسهم .. حين أصروا علي جهلهم فى محاولة لإطفاء الشمس .. أو تغطية وجه الغزالة بالأيدى الراعشة كما يقول الأدباء .

## موقف الملأ

تسجيل الآيات الكريمة موقف الملأ فى قوله تعالى

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَـآءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الأَوَّلِينَ﴾

ولاحظ أنك تواجه قوماً استبد بهم الانفعال الغاضب .. والذى آثروه على التفكير المنظم ..

ولقد كان يكفيهم أن يرفضوا الدعوة بكلمة واحدة .

لكنهم يضيفون إلى الرفض ما هو أسوأ منه وهو : هذه التهم التى يطلقونها قذائف طائشة .. تعكس خبيئتهم التى تعبر عن إحساسهم بالهوان إزاء قوم سبقوهم إلى الإيمان .. وما يفيده ذلك من تمتع المؤمنين بالعقل الناضج . الذى أحسن الاختيار .

ثم بالإرادة المصممة التى اتخذت القرار .. قرار الإيمان .

وهل كان أمرهم بعبادة الله تعالى يستأهل هذا الهجوم الظالم ؟

أبداً

أولاً : إن الأمر بالعبادة .. أمر بما هو مستقر في الفطر السليمة

وثانياً : إن الأمر لا يحتاج إلى عميق بحث .. ودقيق نظر . لا يحتاج الأمر إلى فلسفة وطول عناء بدليل أن العامة سبقوهم إلى الإيمان . والعقل موجود في أدمغتهم .. ومجرد النظر في آيات الأنفس والآفاق كاف في دلالتهم على طريق الوصول .. لكنهم آثروا أن يجمدوا هذا العقل .. أو يلغوه بالمرة !

فليست القضية عندهم تحكيم العقل .. ولكنها تحطيم الخصم والتي تتلخص في :

**دفع الحق ، وإفحام الرسول :**

ومن ثم .. يتجاهلون حقيقة التوحيد التى تفرض نفسها .. راجعين إلى التقليد مستدبرين العقل ..

**يقول صاحب الظلال :**

[ وعند هذه الجماعات الجاحدة الجامدة : أن ما كان مرة .. يمكن أن يكون ثانية .. فأما الذى لم يكن .. فإنه لا يكون !

وهكذا تجمد الحياة . وتقف حركتها . وتسمّر خطاها . عند جيل معين من آبائنا الأولين .

وياليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون .

إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق .. بالجنون .. وهم يدعونهم إلى التفكير والتدبر . والتخلية بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة في الوجود ]

## شبهات الملأ

عجيب أمر الملأ من قوم نوح عليه السلام :

إن فطرة التدين مركوزة في أنفسهم .. ونوح عليه السلام فقط يذكرهم بها ..

ثم هو لا يطلب على التبليغ أجراً ..

ثم هو لم يدع أن هدايتهم بيده . وإنما الهدى هدى الله .. ومع ذلك فإنهم لا يكتفون بالفرار منه .. وإنما يناصبونه العداء .. بالتجنى والإدعاء .

وإذا كان التاريخ له أذن .. وليس له أعين .. يعنى : تسمع أخباره .. ولا ترى بالعين أحداثه .. فإن هؤلاء قد عاينوا .. وشاهدوا : لقدر رأوا كل آية .. ومع ذلك كفروا. ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [ يونس: ٩٧ ] .

إن الرسول عليه السلام تلطفاً بهم يقول لهم :

استدلوا بالأثر على المؤثر .. تخفيفاً عليهم :

إن فكرة الألوهية هى الحقيقة الراسخة .. فكان الواجب ألا تكون محل جدال .. لكن الواجب هو الانطلاق منها إلى تأكيد ما سواها من الحقائق ..

لكنهم جادلوا .. فخفف الله عنهم بهذا المنطق البسيط ومع ذلك أصروا واستكبروا استكباراً ..

استكبروا .. لا لخفاء الحق الذي إليه يدعون . وإنما كان رفضاً لدين جاء قيداً على غرائز الحيوان .. ولما كان الملأ أشد الناس ولعاً بملذات الدنيا .. فلا عجب كانوا سدنتهم وروادهم في عملية التصدى لكل ما جاء قيداً على هذه البهيمية .

[ من الضلال .. إلا الإضلال ] .

لم يكتف الملأ بأنهم ضالون .. فقرروا أن يكونوا مضلين وبلغة العصر .

أ - يدافعون عن المنحرفين .

ب - لا يمكنون المحقين من إعلان الحق والدعوة إليه . وقد أملت لهم أوضاعهم الاجتماعية أن يكذبوا .. ثم استمروا على التكذيب .. بل استمرؤوه . بمثل هذه الشبهات التى يريدون بها : دفع الحق .. وإفحام الرسول :

**الشبهة الأولى :**

قولهم : [ ما هذا إلا بشر مثلكم ]

فهو مساو لكم في البشرية .. ومن ثم امتنع أن يكون دونكم رسولاً .. لأنه ترجيح بلا مرجح .

فالمفروض أن الرسول حبيب إلى ربه . ولذلك أرسله وما دام حبيبه فلابد أن يخصه بمزية تستوجب تفرده بالرسالة .. ولا مزية له .. فلا رسالة معه ..

فإذا ادعى الرسالة مع هذا .. فهوي يريد فقط أن يتميز عليكم رغبة في الاستعلاء .. والتفرد بالكبرياء في الأرض ..

**والشبهة الثانية :**

إنه [ **يريد أن يتفضل عليكم** ] .

إنه يتكلف الرياسة .. يدعيها .. إرادة التفضل .. وطلباً للرياسة .. ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة .. لماذا ؟

لعلو شأنهم .. ووفور علمهم . وكمال قوتهم .. فينقاد الخلق إليهم . ولا يشكون في رسالتهم ] .

**الشبهة الثالثة :**

وتشم فيها رائحة التقليد .. والاعتصام بحبله وذلك قولهم :

[ **ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ]

فما دام ذلك لم ينقل عن الآباء .. فهو باطل .

فالقول ما قالت حذام ..

لكن حذام لم تقل .. وإذن فلا معنى لما يقول الرسول .

**الشبهة الرابعة :**

نسبتهم إياه إلى الجنون .

ثم رتبوا على هذه الشبهة قولهم :

**[ فتربصوا به حتى حين ] .**

أى : اصبروا حتى يفيق من جنونه :

وكان لهذه الشبهة – من وجهة نظرهم – ما يسوغها . لأنه يفعل أفعالاً فوق مستوى العامة .. فاستغلها الكبراء في حملة التشويش .. فرموه بالجنون وهم أشد الناس يقينا بأنه عليه السلام أعقلهم عقلاً .. وأوزنهم قولاً .

## موقف الحق

**[ قال رب انصرني بما كذبون ]**

أبدلني يا رب من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم ..

ولاحظ أن الجواب على الشبهة كان فقط ذلك الدعاء بالانتصار .. غيرة على الحق أن يكون تحت رحمة الباطل .

وقد قيل [(١)] إن السياق لم يرد على هذه التهم . لركاكتها .. ولأن في آى القرآن ما يدحضها من مثل قوله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [ الأنعام : ٩ ] .

ومن حكمة الرد أن يكون طلباً للنصر عليهم .. ومع أن ذلك يعنى هزيمتهم .. إلا أنه يختار في دعائه الجانب البناء في الدعاء ..ويفعل الله ما يشاء .

وهو واحد من دروس الحوار مع المتعنتين بالذات ..

والذين يريدونها حرباً كلامية .. وهم شطار فيها .. وحتى لا نقع في حبائلهم.. فإن من الحكمة وقف الحوار حتى نفوت عليهم أغراضهم ..

ومن بركة القرآن أن يجيء هذا الرد الموجز من قبل نوح عليه السلام .. تبصرة وذكرى لكل داع إلى الله ..

اليوم .. وغداً حتى يكون الرد موجزاً أحياناً على الأقل .

* * *

---

(١) النيسابورى / ٢٤٠٠ .

# فى سورة الفرقان

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً . وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً . وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [ الفرقان ٣٧، ٣٨ ، ٣٩ ] . تضيف سورة الفرقان إلى ما سبق :

١- اعتراض قريش على بشرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان :٧ ] .

٢- نزعتهم المادية في تقدير الناس :

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [ الفرقان : ٨ ] .

٣- اتهامهم الرسول بالضلال :

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ [ الفرقان : ٤٢ ] .

فهم بهذه المعاني يضاهئون قوم نوح .. الذين سبقوهم فاتخذوا هذه المواقف كلها من رسولهم عليه السلام .. فاستحقوا الإغراق ..

وهو اللزوم البين .. الذى لا يتخلف بين التكذيب .. والإهلاك .. كما يفهم من تعليق الإغراق على التكذيب جواباً له : لما كذبوا الرسل .. أغرقناهم :

وهو ما يجب أن تفهمه قريش من قصة نوح وقد سبقوهم إلى التكذيب .. ويوشك الهلاك أن يحيق بهم .. من أجل ذلك تقتصر الآية على جانب الترهيب .. تأكيداً لهذا المعنى ..

ولا تشير إلى الناحية الترغيبية المتمثلة في نجاة المؤمنين .. كما ورد في سورة الأعراف السابقة فى النزول ..

وإذن .. فنحن أمام معنى جديد يطرد من أدمغة المكذبين من قريش احتمال الفرار من العذاب كما كان الشأن في الدنيا ..

لأن ذلك العذاب .. كما جاء في الفرقان .. سنة إلهية .. فهى قدر لازم الوقوع.

لقد كذبوا ابتداء .. ثم استمروا على هذا التكذيب رغم توفر دلائل الهدى :

فكانت جريمتهم الكبرى : هذا الاستمرار أو هذا الانحدار ..لقد كانوا قوماً عمين ..

لم يكونوا عمياناً .. فاقدى البصر . لكنهم كانوا " عمين " فاقدى البصيرة .

ثم يسدل الستار على القوم العمين .. بلا تعليق .. والمطلوب هو الصمت ..

والصمت أحياناً يكون أبلغ من الكلام :

إنما الصمت منطق وبيان حين يودى بالقائلين البيان
في سكوت الأحياء قول بليغ لو تأملت أيها الإنسان :
يصمت الطائر المغرد في الدو ح .. إذا كان تحته ثعبان
مثل صمت المحب وهو كظيم أو كصمت العدو وهو جبان

# فى سورة الشعراء

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . قَالُوَاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىَ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرَمِينَ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [ الشعراء : ١٠٥ ، ١٢٢] .

**تمهيد :**

لابد لنجاح الدعوة من هدف محدد واضح .. وفى نفس الوقت يرعى مصلحة المدعوين .

ومن أساسيات الدعوة أن تكون مطلوبة لذاتها .. لما توفر فيها من عناصر الخير..

وألّا يكون الداعى راغباً في مجد شخصى .. وإنما همه الأكبر هو : الدعوة .. والدعوة أولاً وأخيراً .

وقد نفت الآيات الكريمة عن الرسل كل ما يدعو الناس إلى الإيمان بمبدأ ما في دنيا الناس من المنافع المادية لتظل الدعوة أبداً هم الناس جميعاً : فلم يكن الرسل أغنياء فيطمع الناس في أموالهم و لم يكونوا يعلمون الغيب فيرهبهم الناس . كما لم يكونوا ملائكة فيتوهمهم الناس جنساً آخر .

و لم تكن دعوة نوح عليه السلام نسمة فوق حجر . أو صرخة على قمر . كما يقولون . فإذا كان الملأ من قومه أصروا على الكفر .. ورفضوا أن يكونوا معه .. فإن الكادحين من قومه فتحوا قلوبهم لها .. ومنحوها أشواقهم .. على نحو جعلهم قوة لا يستهان بها في دوامة الصراع .

لقد كانت دعوته عليه السلام ثورة .. وكان هو رمزاً لها .

ثورة تزلزل عروش الطغاة الذين يستنزفون خيرات الوطن على حساب المستضعفين.. الذين فاض نهر الخير من أيديهم .

ومن هنا .. يبادر القوم إلى الإيمان بالله سبحانه كما جاءهم به رسول الله نوح.

يقول القرطبى معللاً سبق الفقراء إلى الإيمان :

" بادروا للاتباع قبل الأغنياء .. لاستيلاء الرياسة على الأغنياء . وصعوبة الانفكاك منها والأنفة عن الانقياد للغير .

والفقير خلى من تلك الموانع . فهو سريع الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا ] .

ونضيف إلى ما قاله القرطبى - رضى الله عنه - :

إن في نفوس القوم من الفقراء استعداد فطرياً للإيمان .. إلى جانب زوال المانع .. فطغيان الملأ من قوم نوح هذا الزمان الطويل .. وتفننهم في إيذاء الفقراء على نحو ما روته كتب التفسير .. يؤكد عمق هذا الاستعداد لدى الضعفاء . والذى أعلن عن نفسه فى معمعان هذه المعركة .. وهذا البلاء المبين ..

والذى كابر طغيان القوم .. دفاعاً عن مبدأ عرفوه . رغم ما يكلفهم المبدأ من باهظ الثمن .

[ والنفس إذا كانت على الفطرة الأولى . كانت مهيأة لقبول ما يرد عليها ويتطبع فيها من خير أو شر :

قال صلى الله عليه وسلم :

" كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (١) .

وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين . تبعد عن الآخر . ويصعب عليها اكتسابه.

فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير . وحصلت له ملكته . بعد عن الشر. وصعب عليه طريقة .

وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده .

وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا . والعطوف عن شهواتهم منها . قد تلوثت نفوسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر . وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك . حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم .

---

(١) متفق عليه .

فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم .

لا يصدهم عنه وازع الحشمة . لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً .

وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضرورى [1] ] .

وإذا كانت مساوئ الترف عزلت المترفين فلم يؤمنوا .. فإن المستضعفين الذين برئوا منها يشكلون جبهة صلبة في مواجهتهم ..

لقد أعلن العمال . . والحرفيون إسلامهم .. فكانوا معه وميضاً يتراءى على صفحة الحياة الداجية .

وفي نفس الوقت . أوقع إسلامهم جبهة الأغنياء في حرج أن سبقوهم إلى الإيمان.. فراحوا يلتمسون الأعذار .. ويجعلون من إسلام الفقراء مانعاً يحول بينهم وبينه .

وحول هذا المعنى يدور الحوار بين نوح عليه السلام والملأ من قومه .. كما جاء في سورة الشعراء :

وإن نظرة إلى السورة الكريمة بوجه عام لتطالعنا بالملامح التالية :

١- بلوغ الصراع بين محمد عليه الصلاة والسلام وقومه حداً أصيب معه بغم يقول الله له بسببه :

**" لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " .**

٢- بلوغ العناد بالقوم حداً خرج بهم عن أن يكونوا أهل طاعة لرسول .. وقطع كل أمل في بادرة سلام تلوح من قبلهم .. والمراد بالقوم هم المستبدون .. وقبلهم قوم نوح :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [ الشعراء]

٣- وإذن .. فسورة الشعراء تحكى مرحلة ساخنة من مراحل الصراع بين الرسل وأقوامهم .. ومن هذه المراحل موقف الملأ من قوم نوح الذين يتأهبون للهجوم على الدعوة التى آتت أكلها . وصارت في واقع الحياة حقيقة راسخة .. يستوعبها أناس

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

يدافعون الآن عنها دفاعاً يرفع حرارة النزاع بين الفريقين .. وكان قبل حواراً فكرياً حول عقيدة لم تزل في ذهن صاحبها وحده ..

لكنها اليوم تتهدد القوم بالضياع الذى لم يخطر لهم من قبل على بال .

وإذا كانت سورة الأعراف تحكي دعوة الرسل إلى التوحيد .. فإن سورة الشعراء تركز على الجانب العملى منها متمثلاً في " التقوى" .

والتقوى ملكة عملية تجيء نتيجة للارتباط الحق بالله سبحانه كما يفهم من قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ٢١].

وإذن .. فالدعوة اليوم ترفع صوتها .. مؤذنه بمرحلة جديدة عملية .. بعد أن استقرت في ضمائر الناس عقيدة وشعوراً .

وحول هذا المعنى يدور حديث الرسل الذين ذكرتهم سورة الشعراء :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

### موقف قوم نوح :

كان قوم نوح على غاية ما يكون الكفران :

فلم يكفروا فقط بما جاء به نوح عليه السلام .. ولكنهم كفروا بكل ما جاء به المرسلون :

فإن كل من كذب رسولاً واحداً . فقد كذب جميع الرسل . لأنه ما من نبى إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق .

فقد كذبوا كل من استند صدقة إلى دليل المعجزة وكذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى " :

﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ .

لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل . وتصديق واحد يوجب تصديق الكـل ] [1] وهنا تظهر أبعاد التكذيب المجمل في سورة الأعراف .

وإذا كان الرسل جميعاً – عليهم الصلاة والسلام قد لاقوا مـن أمـر قومهـم نصبـاً .. فقد كان نوح عليه السلام أوفرهم حظاً من هذا العناء .. لطول مدة رسالته .

## من خصائص الخطاب الإسلامي

يلخص العلماء مميزات الخطاب الإسلامى .. ومنهجه في التعامل مع المدعويـين فيمـا يلى :

١- إنه خطاب إيمانى

٢- يتجه إلى الناس كافة .

٣- يحترم آدمية الإنسان وكرامته

٤- ثم هو خطاب لا يعتمد على الوعظ المجرد .. وإنما عماده الدليل .

٥- وهو خطاب واقعى .. ومن واقعيته أنه : لا يجنح مع الخيال .

بل هو واقعى .. يتسامى بالإنسان

٦- وهو خطاب :

يوحد ..ولا يفرق .. شامل لكل جوانب الحياة : ساسية واجتماعية واقتصادية .

مرن .. متجدد .. يلاحق العصور .. ولا يتجمد .. موضوعى :

لا يركز فقط على نقاط الضعف فحسب .. ولكنه ينصب علـى الموضـوع .. بعيـداً عن المماحكة والمناكفة !!

ومن موضوعيته أنه في خطاب الطغاة .. يخصهم بمزيد من الصبر والتحمل .. وتقرأ قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [ العنكبوت : ٨ ] .

---

(١) الكشاف ج ٣ / ١٢٠ .

إنه مأمور .. بل موصى بأن يخاطب والدية .. لا بالإحسان فلا يكفى .. وإنما بنفس الحسن ..

ومتى يكون ذلك ؟

عندما يكون الموقف من الشدة بمكان .. وذلك حين يدعوانه إلى الكفر .. وعليه أن يبذل فطرة الحسن في مواجهة أقبح القبح !!

**موقف الداعية**

وهكذا كان نوح عليه السلام في خطاب قومه داعياً لهم إلى التوحيد ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين فاتقوا ا لله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ .

**من ملامح منهج الداعية**

**أخوهم . يدعوهم**

إن التذكير بالأخوة هنا يعنى سلامة النهج

فبعض الداعاة يخطئون حين يزعمون أنه : من لم يكن معنا فهو علينا ..

لكن نوحاً عليه السلام يصحح المنهج حين يقرر أنه مع بعد المسافة الفاصلة بينه وبين قومه ..إلا أنه وإن اختلف الدين فهو أخوهم : منهم .. من دمهم ولحمهم .. ومن ثمرات ذلك .. أن تزايلهم مشاعر النفور .. فى ظل هذه الأخوة التى تفرض عليهم أن يؤدوا حقها ..

ذلك بأنه " أخوكم " . ليس أجنبياً .. ولا مستورداً ... ومن ثم فهو أرحم بكم وأحرص على هدايتكم

إنه الدم المشترك .. والمصير المشترك أيضاً .. كلنا ركاب سفينة واحدة توشك على الغرق لو استمرت الأوضاع على ما هى عليه ولاحظ أن القوم "مقلدون" منساقون وراء كل ناعق . والمقلد- كما يقول المفسرون - إذا خوف. خاف ..

وما لم يحصل ذلك الخوف .. فلا مكان في كيانه للدليل ولن يشغل به ..

من أجل ذلك قدم نوح عليه السلام التخويف .. الذى يهز القلب هزاً .. ما دام غافلاً ذاهلاً عن استيعاب الدليل ولما كان التخويف بأقوى أسبابه وهو التقوى نراه يلطف مرارة الجرعة بأداة الاستفتاح : « ألا » ﴿ **ألا تتقون** ﴾ ؟

إنكم مرضى .. وقد اختصكم الله تعالى بالطبيب .. أفلا تتقون ؟

أفلا تكونون أحرص على طلب الشفاء .. رداً لهذا الجميل .. اتقوا الله .. ولا تقابلوا النعمة بالجحود .

ولاحظ أنه يحضهم على التقوى مسبوقة بأداة الاستفتاح ألا .. تلطفا بهم .. ولا يقوم لهم ابتداء بالأمر : اتقوا وكأنما يقول لهم ما يقول العاتب لمن أساء إليه :

ألا تتقى الله في عقوقى .. وقد ربيتك صغيراً

ألا تتقى الله في عقوقى .. وقد علمتك كبيراً

ومن حكمته أن قدم الأمر بالتقوى على الأمر بالطاعة لأن تقوى الله علة لطاعته.

ويعنى ذلك : حرص الداعية على مصلحة المدعو حين يقدم إليه السبب أولا .. ليشجعه على الالتزام بالطاعة مستقبلاً

## تنحية الموانع

وقد تكون لدى المدعو موانع تحول بينه وبين الإيمان . وها هو ذا الداعية ينحيها من الطريق .

فليس في الداعى ما ينفر منه .. بل بالعكس فيه ما يحضهم على طاعته ..

إنه في نفسه [ أمين .. ]

أمين طول عمره .. فكيف يخونونهم اليوم .. وقد بلغ من الكبر عتياً ؟

ثم هو لا يسألهم أجراً :

يعنى : لا يكلفهم بذل عزيز لديهم .

وما يترتب علي ذلك من عزته التى تأبى أن يجاملهم على حساب الحق .

## مغزى التكرار

عندما كرر عليه السلام ذكر التقوى . جاء بها فعل أمر : فاتقوا الله فظهر لفظ الجلالة وما يشى به من رهبة .

وذلك بعد أن ذكرهم بها ابتداء .. وبلطف وتودد .

لأن النفس قد لا تطيق صرامة الأمر ابتداء .. فإذا جاء وقته كان أدعى للقبول ..

وهكذا يمضى الداعى بالموعد خطوة .. خطوة .. فى اتجاه الهدف .. لتنضج[1] الثمرة مع الأيام ..

ذلك بأن الثمرة السريعة النضج .. تتعفن أيضاً وبسرعة ! ولقد كان التكرار .. والتمهل عاملاً مهماً في التأثير : ذلك بأن نقطة من المطر تصنع حفرة في الصخرة .

ولكن ليس بالعنف .. وإنما بالتكرار !!

ولماذا العنف ؟ .. لماذا الاندفاع الأهوج ؟

إن اللص الهاجم . قد يحطم كل ما في البيت .. لأنه لا يمكله ومن ثم لا يبكى عليه.

أما صاحب الدار .. أما صاحب الحق .. ففى البيت ما يهمه .. من أجل ذلك .. فمن مصلحته أن يواجه الخصم برفق ولين .. حفاظاً على مملكته الصغيرة والتى تهمه هو شخصياً وليست في حساب اللص المهاجم الظالم .

**يقول النيسابورى :**

[ وكرر ليؤكد عليهم . ويقر في نفوسهم . مع تعليق كل واحد منهما بعلة :

جعل علة الأول : كونه أمينا فيما بينهم [ وقال فيه : ألا تتقون ] .

وفى الثانى : حسم طمعه عنهم [ وما أسألكم عليه من أجر ]

وكأنما يقول لهم :

ما هو المانع من التقوى ؟ لا مانع هناك .. وكل الدلائل تحملكم على طاعتى :

فأنا أخوكم .

ولا أسألكم أجراً

والمطلوب : واضح .. سهل المئونة .. ودلائل التاريخ تؤكد ذلك .

فلماذا لا تتقون .. فتجعلوا من الإسلام وقاية لكم من عذاب الله تعالى ؟ .

---

(١) من باب تعب .

هذه هى معالم الهدى تملأ عيونكم وفى استطاعتكم أن تنقلوا خطاكم في ظلها.. وعلى نورها..وبإرادتكم وحدها.. وبوحى من العقول لو أنها سارت على الخط المستقيم

ألا إن أمانة الداعى وحدها..وإن انتفاء الطمع وحده يكفى لحمل الإنسان على الإيمان

فما لهم يشغبون ولا يؤمنون .. وقد استجمع الرسول الفضيلتين معا ..

إنه ليس رجلاً نفعياً ..

بل إنه الثائر على قانون المنفعة حتى لا يكون ميزاناً تعرف به أقدار الناس .. لتكون الكلمة الأخيرة للقيم النبيلة اللازمة لإسعاد المجتمع

والتى يكتشفها العقل المنصف من وراء زخرف الحياة الدنيا .

## منطق المترفين

[ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ]

وهذا هو منطق " الملأ "

**الملأ** .. الذين تمتلئ قلوبهم بحب الدنيا .. والرغبة العارمة في الاستئثار بخيراتها .

وفى نفس الوقت " تمتلئ " قلوب الجماهير بهيبتهم وإكبارهم . ومن ثم كانت لهم بصماتهم على مسير الحياة .

وحتى في العقائد ..

العقائد التى هي ملك الإنسان . . يتمنون أن لو فرضوها على الناس فرضاً .. حتى لو ارتكبوا الحماقات في سبيل ذلك ..

وها هم أولاً يعبرون عن فطرتهم المستكبرة :

لقد جردوا المؤمنين من وصفهم الحقيقى .. فلم يقولوا مثلاً :

اتبعك العاملون .. أو الفقراء .. لكنهم يريدون أن يقولوا :

إن هؤلاء الذين اتبعوك هم حثالة الناس .. صنف ردىء المعدن .. ضائع الهدف إلا أن يكون لقمة خبز .. أو غرفة ماء .. ولا ترشحهم مواهبهم – إن كانت لهم مواهب – لتحمل أعباء رسالة السماء .

وهكذا يتصور المترفون ..

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [ المؤمنون ] .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [ المومنون ٧١، ٧٤ ] .

إن الحقيقة لا تضيع أبدا في زحام الأهواء .. ما دام هناك من يبحث عنها .. ليصل إليها .. والحقيقة هنا :

أن دعوة نوح عليه السلام قومه ليطيعوه دعوة أيضاً إلى طاعة المؤمنين معه .. الذين يشكلون به جبهة صلبة في مواجهة دعاة الباطل ..

ومعنى ذلك أن العمال .. والزراع .. وجماهير الشعب الكادح .. تأخذ مكان الصدارة اليوم على مسرح الحوادث .

وبعد أن كانوا بالأمس اتباعاً اذلاء .. خاضعين .. مأمورين .. يقفون اليوم يمثلون دور المتبوعين الجدد ..

ويعلنون بموقفهم هذا انقلاب الموازين في حياة المجتمع .. يوم أن زحفوا من المصانع والحقول ليتحملوا مع رسولهم مسئولية الإصلاح الاجتماعي .. وكانت قبل وقفاً على أسيادهم المترفين ..

وإذن .. فقد اتضح لنا كيف سموهم : أراذل .

إن اختيار هذا اللفظ بالذات يعكس عمق المرارة في كيان القوم .. الذين تتوارى اليوم أحلامهم .. ويسمعون . ولأول مرة مالم يكونوا يتصورونه :

يأمر . العبد سيده .. ويعلم المستأجر مالك الأرض .. ويصرخ العامل بالحق في وجه مديره السابق !! .

إن الخصائص النفسية تأخذ مكانها اليوم .. في ظل ثورة عارمة تعيد الحقوق لأصحابها الشرعيين .

وتؤكد في ذات الوقت كذب الطغاة الجبارين حين ادعوا أنهم مستعدون للإيمان.. لولا هؤلاء الأراذل ..

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

لقد امتنعوا بالأمس عن الإيمان به .. لأنـه " في ضـلال مبـين " ثـم .. هـا هـم أولاء يتراجعون .. ليقدموا سبباً آخر .. قد يصيب من دعوته مقتلاً .

أى أنهم يتنازلون اليوم - رضوا أم كرهوا - عـن تهمـة الضـلال المبـين - أو هكـذا يفيد منطقهم - ليقولوا :

" أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا " ؟!

ويصبح تفسير موقف الملأ هكذا :

أنت على حق .. ونعتذر عن تهمتنا الآنفة ولكن يمنعنا هؤلاء !

ولكن "الوثبة" المؤمنة تمضى في طريقها متجاهلة سفسطة القوم ..وفلسفات الأدعياء

وإذا كان " الأراذل " يشكلون العقبة الـتي تعـترض الطريـق .. فهـم أنفسـهم الأمـل الوطيد في القيام بأعبائها ..

ولترتد سهام الكائدين إلى نحورهم بنفس ضراوة الكيـد المبيـت .. وليمـض المؤمنـون على الطريق مهاجرين من هذه البيئة الدنسة إلىجو آخر نظيف كهذه القلوب النظيفة..

### تهمة مردودة

والرذالة تعنى [ الخسة . وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم . وقلة نصيبهم من الدنيا.

وقيـل : كـانوا مـن أهـل الصناعـات الخسيسـة - في زعمهـم طبعـاً - كالحياكـة والحجامة ] [١] .

[ وهذه الشبهة في نهاية الركاكة :

لأن نوحاً عليه السلام بعث إلى الخلق كافة :

فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى . وشرف المكاسب ودناءتها ] .

### رد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىَ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَاْ بِطَـارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مّبِينٌ ﴾ [ الشعراء :١١٢ - ١١٥ ] .

---

(١) الرازى ج ١٢ / ١٥٥ .

لقد كان من تحامل الملأ على الفقراء أنهم أى الفقراء آمنوا بادى الرأى .. أى بلا رؤية ولا تبصر .. وإنما هو الاندفاع المتسرع نحو الفكرة واعتناقها بلا تفكير ..

وعلى ذلك كان رد الرسول عليهم كأنما هو السهام دفاعاً عن دعاة السلام .

**طبيعة الرسالة :**

ويعنى رد نوح عليه السلام أن وظيفته هي :

النذارة . أما حسابهم. فعلى الله. وهو بذلك يرد على الكافرين طعنهم في دين الفقراء .

ثم يعمق في القلوب قيمة أصيلة هى :

[ إنكار أن يسمى المؤمن رذلاً .. وإن كان أفقر الناس وأوضعهم .

فالغنى .. غنى الدين . والنسب .. نسب التقوى ]

والرذالة حقاً هى : سوء الأعمال وفساد العقائد ..

ونحن لا نحكم إلا على الظاهر . والله تعالى يتولى السرائر ولا اطلاع لنا عليها . كما وأنه ليس من اختصاصنا أن نفتن عنها . ولكنكم لا تشعرون ..

وكيف تشعرون وقد أسلمتم قيادكم للجهل والهوى تسيرون معه حيث يسيركم ؟ .

**الرد العملى :**

وكان الرد العملى ما حكاه القرآن الكريم

[وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ المؤمنين ] [ الشعراء : ١١٤ ] .

المطرود حقاً من ساحتى هو من كفر بالله تعالى ..

أما من آمن فهو الأقرب منى .. وما أنا إلا منذر بين النذارة فمن خاف فهو القريب.. والبعيد من أصم أذنيه .

ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم . وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم.. طمعاً في إيمانكم

وما على إلا إن أنذركم إنذاراً بينا بالبرهان الصحيح . الذى يتميز به الحق من الباطل.. ثم أنتم أعلم بشأنكم .

## دعاء المشفق لا دعاء الشامت

ولم يستحب القوم للناصح الأمين .. بل وهددوه بالرجم بالحجارة . ولما أحس نوح عليه السلام باليأس من إيمانهم دعا عليهم بما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧ ، ١١٨ ] .

ومما لاحظه المفسرون هنا :

أنه عليه السلام في دعائه هنا لم يصدر عن انفعال التشفى وإنما هى الغيرة على دين الله ..

وكأنما يقول :

[ أنا لا أدعوك يا ربى لما أغاظونى وآذونى وإنما أدعوك لأجلك .. ولأجل دينك.

ولأنهم كذبونى في وحيك ورسالتك .. فاحكم بينى وبينهم ] [1] .

لقد جاء الدعاء في أوانه .. على أناس جمعوا إلى الهزيمة الفكرية الهزيمة الأخلاقية :

حين رفضوا الدعوة .. ولم يعطوها حقها من الدراسة .. ثم ها هم أولاء لا يكتفون.. وإنما يهددون بالعدوان من جاءهم بالإيمان .

### تهافت المترفين :

ماذا يريد المترفون من دعاة الصلاح ؟

يريدون أن تتوقف عجلة الزمن .. ليبقى الوضع كما هو :

السادة سادة .. والعبيد عبيداً .. !

ولتبق الثروة .. والنفوذ في جانب .. ويظل الفقراء أو " الأرذلون " كما زعموا في زحمة الحياة لا يملكون بل ولا يتكلمون .

ولقد كانت هذه أمنية قريش الغالية :

أن يتجمد بلال .. وعمار .. وخباب .. فى مواقعهم التى كانوا عليها . آلات تدور .. وعرقاً يتصبب .. بينما أمية بن خلف ومن حوله من سمار الليالى يتقلبون في

---

(١) الكشاف .

أعطاف النعيم .. ويتحكمون في أرزاق الناس .. وتلك سنة سنها الملأ من قوم نوح حينما أعلنوا استعداءهم للإيمان . لولا هؤلاء الأرذلون ".

وخلال عملية إنقاذ هؤلاء العاملين من مخالب أسيادهم تنشب معركة يلجأ فيها المضللون إلى أساليب من الخداع - لا تنطلى على دعاة الإصلاح - إذا كان التدخل المسلح لا يحقق لهم أغراضهم .

ومن صور التموية ما تبجّح به الملأ من قوم نوح حين ادعوا أن إيمانهم وشيك الوقوع .. ويمنعه هؤلاء الفقراء .

مع أن ذلك رقصة الطائر الذبيح يرى نهايته تقترب ، فهم يحسون بقوة إلهية تأتى بنيانهم من القواعد .

ويفاجأون بموازين القوى تنقلب ليمسك عبيد الأمس بالمجداف .. بينما أسياد القوم.. حديثاً يروى .. ومن هنا يلجأون إلى التزوير ! .

يقول الدكتور محمد سعاد جلال :

" من المؤكد أن طبقة المترفين التى تظهر في الأمم ويكون لها أكبر التأثير في مجريات أحداثها .. طبقات تهيأت لها - لأسباب عنصرية واجتماعية ومصادقية أيضاً بعيدة الغور التاريخى في حياة الأمة تهيأت لها قوة حقيقية مكنتها من الوصول إلى مستوى التفوق والنعمة والسيطرة التى تكون فيها ، بحيث تعجز الطبقات الأخرى في الأمه عن مزاحمتها، أو منازعتها في مركزها الممتاز من المال والسطوة والنعمة .

وحينئذ يظهر في حياة هذه الطبقة المتميزة بالقوة والبأس والمتعة والأبهة عاملان :

الحرص على استبقاء امتيازاتهم الطبقية بإزاء الطبقات الأخرى المحتقرة في نظرهم.. والإسراف في ممارسة الشهوات .

ويترتب علي العامل الأول كراهيتهم الصارخة للتغيير الاجتماعى في حياة الأمة الذى هو ظاهرة حتمية لفعل قانون التطور التاريخي المستمر .

وهذه الكراهية الصارخة للتغيير الاجتماعى تبعثهم على محاربتهم لكل إصلاح دينى.

فإذا هم بهذا السبب حرب دائمة في كل مراحل التاريخ على المصلحين من الأنبياء والمرسلين .

ومن كان على قدمهم من العاملين ، الداعين لمسايرة حتمية التطور الإنسانى ، والترقى البشرى الذى هو إرادة الله في خلقة . ونظامه في كونه .

ويترتب على العامل الثانى :

إشاعة الانحلال الأخلاقى والنفسى في الأمة . حيث تضمحل المثل العليا وأحكام الدين في نفوس الناس ]

ولقد أصر قوم نوح على أن يحتفظوا لأنفسهم بميزة صلاحية الإيمان با لله ، دون غيرهم من الفقراء الذين حرموهم أيضاً نعمة الاستمتاع بالحياة ! وذلك فيما حكاه القرآن الكريم من قولهم : ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ** ﴾ [ الشعراء : ١١١ ] .

وما كان جواب نوح عليه السلام إلا أن قال :

﴿**قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [ **الشعراء : ١١٢ ، ١١٥** ] .

**يقول ابن كثير :**

" أى : وأى شيء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ولو كانوا على أى شيء كانوا عليه .. لا يلزمنى التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياى ، وأكل أسرارهم إلى الله عزَّ وجلَّ " .

**وجاء في حاشية الجمل :**

" والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سرائرهم وبواطنهم " .

**وفى القرطبى :**

" إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ".

أى : أن نوحاً عليه السلام يقف بنفسه عند حدودها ، فلا يتخطى نطاق وظيفته .

ولنا الظاهر . والله يتولى السرائر .

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده .

أطال فأملى .. أم تناهى فأقصر .

فلو كان إيمانهم كما تزعمون تحقيقاً لمنفعه شخصية تطلعوا إليها ، وبرئتم أنتم منها ، فذلك غيب استأثر الله تعالى بعلمه .

وليس من حق كائن أن يقرر أمراً لا يدخل في نطاق إدراكه .

وهي دروس يجب أن تفهم جيداً في دنيا الواقع :

[ التثبت .. قبل الحكم .. ]

واستبعاد الحرفة عند وزن الإنسان وتقدير مركزه . والكف عن البحث في رماد طال عليه الأمد .. وراء ترهات لم يعد لها وجود .. وكلما شع جوهر الإنسان ضياء. وصار في ظل الإيمان كائناً جديداً .. فإن من الجرم الواضح أن تنكر الشمس في رائعة النهار بغياً وعدوا .. لأن الأمر حينئذ يصير مؤامرة ماكرة ضد فضائل الإنسان التى تمارس وجودها . مؤامرة : من قبل أناس يرون فيها خطراً على حياتهم .

ولعل هذا الموقف المتعنت .. الذى ألزم به الطغاة أنفسهم .. أحد السمات البارزة في حياة القصور العامرة بالمترفين من أبناء الذوات الذين يرضون ويخلعون ويرقون ويخفضون. ويكرهون لمجرد شائعة تدبر .. بغض النظر عن الواقع الذى يؤكد أنها كاذبة .

والذين يعيشون على أمجاد ماض عقيم .. لم ينجب سوى أجسام نخرة .. وعقول أفسدها النعيم . تشكل في دنيا الناس ركاماً يعوق سير القافلة الماضية في طريقها المرسوم.

وهو أيضاً : مظهر القلق المستمر داخل هذه القصور . وإن بدت للعين المجردة نعمة تداعب الخيال .

في نفس الوقت الذى تبدو فيه القلة المؤمنة على غاية ما يكون الثبات في الأمر . لأنها تأوى إلى ركن شديد .. يقدم إلى ما عمل هؤلاء من عمل فيجعله هباء منثوراً .

ولعل تكرار لفظ " الرب " هنا يشير إلى قوة الثقة بالله . إزاء عصابة تدل بنفسها.. وتستجمع نفوذها .. وذلك في قول الحق سبحانه :

﴿ إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾.

﴿ إن حسابهم إلا على ربى .. لو تشعرون ﴾ .

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾ .

و" الرب " سبحانه وتعالى هو الجهة العليا التي يستلهمها النصح والرشاد .. وتفصل بين الناس بالقسطاس المستقيم .. بعيداً عن كل قوة أرضية تنسى الإله الأعظم القاهر .. وتريد باسم هذه القوة المزيفة أن تستعبد الناس بعد أن ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

هذه القوة التى تتلقى اليوم ضربة في الصميم . تذيب كل أحلامها في قوله سبحانه :

**﴿ وما أنا بطارد المؤمنين .إن أنا إلا نذير مبين ﴾** .

إن نفساً تقبلت الإيمان الذى يستقر في وجدانها اليوم . يجب أن تعيش .. فالمستقبل لها .. وهى بهذا الإيمان تمتلك موقعها في المجتمع ولا تملك قوة أن تزحزحها عنه قيد أنملة.. ولو كانت القوة نوحاً عليه السلام ! .

لقد تغير معدن هذه النفس .. بالإيمان .

فصارت به بشراً سوياً يفرض على الحياة وجوده .. فتحترم مشيئته .. وتفسح له الطريق . ليصل إلى أرقى المناصب ! .

ودور الرسول فقط .. أن يكون نذيراً مبينا .. بلسان قومه الفاهمين لغته .. حتى لا يكون للمتعنتين حجة بعد الرسل .

وإذن ..

فالإنسان – أى إنسان – هو مبدأ التغيير . وفى تربة من مشيئته تنبت بالإيمان شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء وتنبت بالكفر أخرى خبيثة .. مالها من قرار .

ولأن الرسول رائد لا يكذب أهله .. يحدد سير هذا القلب .. ليعرف : من أى شيء يخاف ؟

إن الخوف من الله وحده .. والثقة به وحده . وعلى الطاغين أن يفهموا هذا الدرس.. وهيهات هيهات أن يفهم الدرس من تجرد من الإحساس المرهف الذكى.. وعلى رأسهم قوم نوح لأنهم لا " يشعرون " .

وبهذا المنطق البلغ , يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ويقف نوح عليه الصلاة والسلام مع القلة المؤمنة في ظروف مشحونة بأعنف صور التحدى أمام قوم يملكون من وسائل النفوذ ما يملكون ..

ولقد كان أقوى من ذلك كله :

أن يعلن واحد من العبيد إسلامه فكان صرخة مدوية في وجه سيده ! الذى يطعمه ويسقيه.. وهو أمر خطير في حياة فاسق تزايله الآن عظمته الجوفاء بزوال سببها .

بقدر ما تزيد من قوة اليقين في نفوس تملك الآن تخطيط مستقبلها ... وصنع حياتها على أرضها . وبإرادتها .

ولا يملك الأسد الجريح إلا الزئير الذي يضيع أخيراً في واحة العدم :

﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ .

والتلويح هنا بالقوة المادية سمة الضعفاء دائماً لأنه يعنى إفلاس العقل من الحجة..

ولأن ضحالة الروح التى خلت من معانى التحمل والصبر .. يدفع فى النهاية جوارح الإنسان إلى العنف الذى تطوي به حياته ..

ويبرز معنى التوكل على الله كقوة لا تقف أمامها عدة الناس وذلك في قول متجهاً إلى الحق سبحانه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [ الشعراء : ١١٧، ١٢٢ ].

ويجمعهم الإيمان في فلك مشحون بكل ما يستأنفون به حياتهم مرة أخرى .. من كل زوجين اثنين .. بينما يبتلع الموج الكثرة الباغية .

إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم " إن في هذا الذى حدث – من انتصار القلة وهزيمة الكثرة – لعلامة واضحة على طريق المجاهدين في سبيل الله .. من أبناء الأمة التى تقف اليوم تلقاء أمم تزهو بعدتها وكثرتها !.

وحين يفتح السطحيون أفواههم دهشة يجيئهم الدليل : ذلك .. بأن ربك عزيز.. يدمدم بهذه العزة جحافل الظلم ..

ورحيم . يشمل برحمته جند المؤمنين .. الذين يقفون مع النفس .. مع العقيدة وما توحي به من مبادئ الحق والخير .. إن الأمه العربية والإسلامية اليوم غنية بإيمانها .. عزيزة بمبادئها .. فهى منتصرة لا ريب .

وها هى ذى قصة نوح تقدم لهم الشاهد .

ومهما كثر الأعداء .. فإن التفافنا حول العقيد ضمان للنصر المبين .

هذه العقيدة التى انتصرت بها قله هم ركاب سفينة واحدة .. فى مواجهة العالم كله.

وربما كان من أسباب هزيمتهم المرتقبة .. هذه الكثرة التى يغيب في زحمتها التفكير المنظم والمنطق السليم .

وتلك نهاية الكثرة الباغية على مدار التاريخ :

[ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ]

﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون** ﴾ .

﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ .

﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ .

﴿ **وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ .

## الداعية .. صياد ماهر

## يقول أحد الباحثين :

إن الداعية صياد ماهر :

وإذا كان بعض المتسرعين يقنع .. بما يرمى به البحر من حصى وسمك ميت .. فإن الداعية الذكى : يغوص في الأعماق .. ليستخرج اللؤلؤ والمرجان

إن الجمهور بين يديه كالبحر المتلاطم .

فيهم الغنى .. وفيهم الفقير ..

وفيهم الذكى .. وفيهم الغبى

من أجل ذلك لا يكتفى بالموعظة يلقيها .. ثم يستدبر المدعو ماضياً لسبيله ..

وإنما يشخص العلة .. ثم ينتقى من الدواء ما يذهب بها .

إنه يقول للأغنياء مثلاً

إن لكم ذنوباً كثيرة .. فأكثروا من الحسنات .

ثم يقول للفقراء .

أقلوا من الذنوب .. فإن حسناتكم قليلة .

وكان ذلك سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في تعامله مع صحابته رضوان الله عليهم.

كان يعلم نقاط الضعف فيهم ومواطن القوة

فكان يتخير للمهمة من يصلح لها .. ولايترك الأمور للمصادفة .

وقد يحدث حوار بينه صلى الله عليه وسلم وبين الرجل حول قضية ما وينتهي الحوار بعدم صلاحيته لها .. ثم يصار إلى غيره ممن يجيد أداء الدور :

**في الحديبية** : كلف النبى صلى الله عليه وسلم عثمان - رضى الله عنه - بمهمة مفاوضة قريش . ولم يرشح للمهمة عمر - رضى الله عنه - .. لماذا ؟

١- لم تكن لعمر - رضى الله عنه - عصبية من بنى عدى .. ويخشى عليه من قريش

٢- لن تنسى قريش له عداوته لها .

وهكذا لا تعالج قضايا الدعوة عشوائياً .. وإنما هى : الدقة .. والموازنة .. ثم الاختيار الواثق .. للرجل المناسب .. للدور المناسب .

**وموقف نوح عليه السلام** .. فى حواره مع قومه .. وما انتهى إليه من بقاء الأصلح.. وإغراق المفسدين .. كل أولئك يشكل دروساً بين يدى رواد الدعوة ليكونوا على مستواها .

ولئن لم تحقق الدعوة نصراً مؤزراً في مرحلة ما .. فيكفى أن يخرج الداعية منتصراً بفكرته .. وأن العقيدة التى يدعوا إليها بقيت .. وذهب أعداؤها .

فإذا تصورنا ذلك الزمن المتطاول .. والذى استغرقته دعوة نوح عليه السلام .. تبين لنا أهمية الأمل .. ثم استمرار محاول الإصلاح فلعل وعسى .

**فقر الجيوب لا يعنى فقر القلوب :**

**﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا .. ﴾** .

يقول المتنبى :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن

يخلو من السهم من يخلو من الفطن

وقد كان الفضلاء من الفقراء غرض المترفين من الملأ والذين يرمونهم بكل نقيصة.. إلى الحد الذى حدا ببعضهم أن يقول تأسيساً على هذا الزعم الخاطئ ليس من خَلّةٍ للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب :

فإن كان الفقير حليماً .. قيل : بليد .

وإن كان عاقلاً .. قيل : مكار .

وإن كان بليغاً .. قيل : مهذار .

وإن كان ذكياً .. قيل : لئيم .

وإن كان صموتاً .. قيل : غبى .

وإن كان متأنيا .. قيل : جبان .

وإن كان عارفا .. قيل : متهور .

وإن كان جواداً .. قيل : مسرف .

وإن كان مقتصدًا .. قيل : بخيل .

تذكرت هذا .. وأنا أتملى موقف الملأ الذين جعلوا من إيمان الفقراء مانعاً .. والمفروض أن يكون مقتضياً !

وكيف سالت من هذه العين الحمئة أفكار منحرفة ظالمة تزين لسدنتها أن تنهب من حسنات الفقراء لتضيفها إلى حسابها ..

مع أن فقر الجيوب لا يعنى خراب القلوب .

ومن الطريف هنا أن نذكر - ما أنشدة الشاعر القديم والذى ناجى زوجته قائلا:

دعينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له كرم وخير
ويقصى فى الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد حاجبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن الغنى رب غفور !!

## موضوعية الحوار

والمفروض أن يكون الحوار موضوعياً :

فقد جاءهم من ربهم الهدى .. على لسان رسول من أنفسهم وعليهم أن يقوموا لله مثنى وفرادى .. ثم يتفكروا .. فلعل التفكير أن يهديهم إلى الحق .

لكنهم بدل أن يبحثوا كما بحث الفقراء .. فاهتدوا .. بدل هذا يتجاوزون الموضوع ليدخلوا في معركة شخصية يراد بها تجريح الذين سبقوهم إلى الإيمان .

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [ الأحقاف : ١١ ] .

مع أن الحق ما ذكره القرآن الكريم على لسان لوط عليه السلام والذى قال : ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [ الشعراء : ١٦٨ ] .

فهناك عامل .. وهناك عمل ..

أما العامل .. فهو أخى في الإنسانية ..

وأما نقطة خلافى معه .. فهى عمله .. ومما يؤكد ذلك : تقديم الجار والمجرور في [لعملكم] فهو عملكم أولاً .. وعملكم أخيراً ..

ولكن القوم مصرون على الخروج من المقرر .. فكان حوارهم عقيماً . ومن عقمه أنك إن زجرت المخطئ منهم . فأنت حاجز للأفكار . وإن تصديت لمن يتعدى الحدود.. قالوا : مانع من حرية الرأى ..

وفى مقابل هذه الصورة القاتمة ... تجد الصحيفة البيضاء صحيفة عالم هادئ مستنير.. يمسك بزمام الموقف .. ليفوت على المهرجين أغراضهم .

فهو يدرس القضية . حتى يكون الصواب واضحاً .. لائحاً .. والدليل راجحاً .

وعندما يتقدم ليحاور .. يرسلها قذائف من البراهين تدمغ الباطل فإذا هو زاهق.

إن الغنى في حد ذاته . لن يكون في يوم ما دليل تكريم .. كما أن الفقر في حد ذاته لن يكون أمارة هوان ..

وقد يموت الغنى .. فلا تبكى عليه أقاربه ..

وقد يموت فقير غائب هناك بين أعواد الحقول .. لكن يوم موته يكون عيد ميلاده :

[حين تنهضه الفضائل التى عاش لها .. لتتقبل فيه العزاء .. وإذا كانوا يقولون : [ لا يخلو المؤمن من ذلة . أو علة . أو قلة ]

فإننا نقول :

إن التعريف هنا غير حاصر .. بل إنه قاصر : فهناك فقراء أنقياء .. أتقياء .. عرفوا الحق . فعز عليهم ألا يتزينوا به ..

وإذا قصرت ثرواتهم .. فقد طالت هممهم .

أَعْمَارُنا جَاءَتْ كآى كِتَابنا

منها طِوَالُ فُصِّلَتْ وقِصَارُ

ولا بأس على الفقراء ما حلّ بهم من العوز .. بعدما زينوا باطنهم بالإيمان .

وما ضرنا أنا قليل . . وجارنا

كثير .. وجار الأكثرين قليل

فليهرف الملأ بما لا يعرفون .. وبما يعرفون .

لقد وصفوا أفكار القمة فقالوا :

إنها [ زبالة الأذهان – ونخالة الأفكار – وعفارة الآراء – ووساوس الصدور .. فملأوا به الأوراق سواداً .. والقلوب شكوكاً . والعالم فساداً ]

وما بمثل هذا المنطق المنفعل يتحاور العقلاء ..

هذا المنطق الذى يروج في غياب العقل المنصف .. والقلب المشفق . أما إذا ازدهرت قيمة الموضوعية .. والإنصاف .. فإن الثمار عندئذ تكوني يانعات .. دانيات..

و لله سلفنا الصالح من أهل السنة :

فعلى بعد مسافة الخلف بينهم وبين المعتزلة إلا أنهم .. والمتحفظون منهم بخاصة لم يتورعوا أن يقولوا عن الزمخشرى المعتزلى :

**إنه إمام الدنيا**

## الفقراء .. ليسوا غرباء

لن يتحول الفقراء إلى غرباء .. لمجرد أن الملأ من قوم نوح أرادوا ذلك ..

ولئن تكاثر الأغنياء .. وألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر .. فإن الفقراء لن يكونوا أبدا غرباء تفرض العزلة عليهم ذلك بأنه :

ليس الغريب من لا يزوره أحد .

وإنما الغريب حقاً :

هو من لا يجد أحد يزوره هو !.

ذلك بأن القوى قد لا يزور الضعيف الشريف . لأن ذلك الشريف يذكره بنقصة.. من حيث كان الفقير بفضائله حجة أقامها الله على هذا القوى الغوى .. ذلك بأن الكاذب . يكره الصادق .

والبخيل يكره الكريم .. ومن ثم فقد قَلَّ من يطرق باب الفقراء لكنهم مع ذلك.. ليسوا غرباء .

أما الأقوياء الظالمون فهم الفقراء حقاً :

لأنهم – مع كثرة زوارهم – لا يحسون في قلوبهم برغبة في زيارة من يكرهون.. ومن يحسدون !.

إنهم لا يجدون في قلوبهم رغبة في زيارة أحد وأولئكم هم الغرباء حقاً !!

أما بعد

فقد قال مالك الهمذانى :

أنبئت والأيام ذات تجارب ... وتبدى لك الأيام ما لست تعلم

بأن ثراء المال ينفع ربه ... ويثنى عليه الحمد وهو مذمم

وإن قليل المال للمرء مفسد ... يحز كما حز القطيع المحرم

يرى درجات المجد لا يستطيعها ... ويقعد وسط القوم لا يتكلم .

* * * * *

# فى سورة نوح

# رحلة الألف عام

# في آيات بينات

**تمهيد :**

في محاولة المفسرين ربط آخر سورة المعارج بأول سورة نوح قالوا : ذكر الله

﴿ فَلاَ أُقسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىَ أَن نُّبَدِّلَ خَيراً مِّنهُم وَمَا نَحنُ بِمَسبُوقِينَ ﴾ .

[ وقد جاءت سورة نوح عليه السلام دليلاً تاريخياً على ذلك فقد أغرق الله الظالمين.. وبقى المؤمنون الذين أورثهم الله الأرض من بعدهم ] .

والسورة الكريمة إجمال واف لهذه الرحلة الطويلة .. والتى حفلت بأغلى ما يحفظه التاريخ من ذكريات .. وأكمل ما يعى من مبادئ في عالم العقيدة . وعالم الأخلاق .

وبعد هذه التفاريق من قصة نوح عليه السلام .. والتى صَرَّفَها الحق تعالى في كثير من السور .. تجيء هذه السورة جامعة كل المواقف .. ملخصة مراحل الجهاد .. عبر آيات قصار . تتملاها الإنسانية في كل العصور فتحس في أعماقها بأن الباطل هو الباطل.. وأن الإنسان هو الإنسان على امتداد التاريخ ..

وأن هذه النزعة العدوانية تتحدر من الأسلاف إلى الأخلاف الذين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .

لكن العاقبة للتقوى .. وإن تأخرت هذه العاقبة طويلاً .

فما ذا فى السورة من دروس .. يتملاها الدعاة اليوم .. وغداً . لتكون لهم دليلاً على الطريق ؟ :

**١- وضوح القضية :**

يقول البصراء بفن القول :

حين يتعلق الأمر بالقلب .. فإن الحق يأتى بالصور البيانية والألفاظ الموحية ..

وحين يتعلق بالعقل يأتى بالقضية مجردة واضحة والقضية هنا واضحة كل الوضوح:

﴿ إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

إنه لا يعمل لحساب نفسه .. ولكنه رسول . مأمور من قبل من أرسله سبحانه وتعالى أن يبلغهم بأنه نذير لهم .

ومع أنه عليه السلام ككل الرسل : بشير ونذير إلا أنه يقتصر هنا على جانب النذارة:

أولاً : لأن القوم كانوا من الطغيان في قمته .

وثانياً : وكما قيل بحق :

إذا كان الرفق مطلوباً ودائماً في مناقشات التلميذ مع أستاذه . والوالد مع والده.. فإنه وفي مجال الدعوة : إذا كانت القاعدة هي الرفق .. فإنه .. وفي مرحلة من مراحلها يكون الحزم أولى كعامل نفسي يؤكد قوة الداعي الذي يفرض بالحزم احترامه على مناوئيه .

**٢– ثقة الداعي بربه .**

وانظر : إنه رجل واحد .. فقط .. يواجه مجتمعاً وثنياً ..

يواجهه بفكرة جديدة . لا عهد له بها .

ويجد من ثقته بربه . وبنفسه ما يثبت قدمه على الطريق . في معركة يغالب فيها كثرة كاثرة تملك من الحول والطول ما تملك ..

**بروز معنى التهديد**

ولاحظ أن التحذير هنا صادر من الله تعالى . بعدما كان صادراً من سيدنا نوح عليه السلام .. مما يلقي على الموقف ظلالاً من الرهبة تفرض على القوم أن يتريثوا قبل أن يتخذوا قرار العناد .. لأن العائد خطير .

ثم إن العذاب هنا " منكر " .. وهو مع ذلك أليم .. ومن الحكمة أن تكون جرعة الدواء مناسبة لوضع المريض كَمًّا وكيفاً ..

**من صور الحكمة في الخطاب .**

وما دام التكليف صعباً .. فمن الحكمة أن يكون – مع النذارة .. بشارة بمكافأة دنيوية .. وفوق ذلك .. مكافأة أخروية إطماعاً للمدعو :

أ – أما الدنيوية :

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

ب – وأما الأخروية :

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ .

ولاحظ ما يفيده حرف الجر " من " من ذنوبكم إنه يفيد التبعيض .

وقد يعنى ذلك إرخاء حبل الأمانى بين أيدى القوم . والذى يطمعهم أنهم لو آمنوا.. فسوف يغفر الله تعالى لهم كل ذنوبهم جميعاً .. لا بمجموعها .

ولو حذف الحرف " من " لكان الموعود به ابتداء غفران كل الذنوب ..

ولكن الحكمة تفرض غفران البعض أولاً .. ليكون ذلك سبيلاً إلى تحريضهم على مواصلة السير إلى الله .. ليأخذوا حظهم من الغفران كاملاً .. فيما يقبل من زمان .

**أضف إلى ذلك كله :**

قوله تعالى " لكم " . فى " إنى لكم .. "

**ويعنى ذلك :**

إظهار التخصيص . وما يثمره من إحساس المخاطب بأنه المقصود بالذات .. دون غيره .. وفى هذا من الاهتمام به ما فيه .. مما يعين على الاستجابة .

إن الحق تعالى يعلمهم على لسان رسوله :

أنه أرسله إليهم .. لينقذهم من عذاب أليم يوشك أن يحل قريباً من دارهم ..

وعليهم أن يفكروا .. ثم يعتبروا .

وسوف يهديهم التفكير إلى هذه الحقيقة :

إنه نذير .. ونذير مبين

تحمل رسالته خصائصها الذاتية :

واضحة لكل عقل ..

ميسرة .. لمن اتخذ إليها سبيلاً .

**٣– طبيعة العقيدة**

إنها عقيدة تشد من أزر الإنسان :

حين تربطة بخالقه سبحانه وتعالى .

ثم توثق صلته بمجتمعه على نحو تتحول به العقيدة من أمل في النفس .. إلى أخلاق عملية في دنيا الواقع بالتقوى التى تجعل من الآمال أعمالا تزدهر في ظلها الحياة .

وذلك قوله تعالى :

﴿ أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

إنها دعوة إلى الملجأ إلى الركن الشديد .. بالتوحيد .. والتقوى . ولن تكون للعقيدة أثرها في النفس .. ولا للتقوى ثمراتها في واقع الحياة حتى يكون الرسول الداعى .. موضع الأسوة بطاعته .. وتتبع خطاه .

لأنه وحده الصالح لتطبيق الشريعة بقوله وفعله .

وعن طريقه تتولد النماذج الصالحة .. والتى يراها الناس فينسجون على منوالها .

ولقد أفصح نوح عليه السلام حين أحس بقوته المنبثقة عن إيمانه بقدرة ربه تعالى .. واستطاع أن يواجه قومه بكلمة الحق متجاوزاً كل مجاملة أو مداهنة . ورغم أنه منهم.. لكن الحق أعز عليه منهم جميعاً .

**تنويع وسائل الدعوة**

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوتُ قَومِي لَيلاً وَنَهَاراً ﴾

وهو تنويع في " الزمان "

ليلاً .. ونهاراً

والتنويع نفسه يعين المدعو على مراجعة نفسه ..

بالإضافة إلى أنك لا تدرى متى تكون لحظة الإجابة .. فحاول بالتلوين أن تصادف هذه اللحظة الخصبة المباركة ..

والبدء بالليل .. ربما كان أسهل على المدعو الذى قد يعفيه الظلام من الحرج حين يعرض عن الحق في ستر من الليل الذى لا يكشف سوأته ..

وإذن .. فهو البدء بالأسهل .. بالأيسر .. فلعل وعسى .. أما الدعوة في النهار وما تفرضة من إحراج المدعو حين يدعى إلى الحق على المكشوف فذلك هو الموقف الصعب..

ولهذا السبب .. فهى تأخذ مرحلة تالية ..

**إحراج المدعو :**

وإذ يفعل الداعى أفضل ما يليق به .. حين يلاحق المدعو بالحق في الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ..

وإذ يبذل المدعو فطرة العناد فيه .. فمن الحكمة إبرازه في أسوأ حالاته .. فلعله أن يراجع حساب ربحه وخسارته .. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ فَلَم يَزِدهُم دُعَآئِيَ إِلاّ فِرَاراً ﴾

وما ظنك بناس يأتيهم من ربهم الهدى .. فلا يهتدون .. ولا يسكنون .. ولكنهم.. يزيدون في العناد ؟!!

**من دواعى الاستجابة :**

يقول تعالى :

﴿ وَإِنّي كُلّمَا دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُم فِيَ آذَانِهِم وَاستَغشَوا ثِيَابَهُم وَأَصَرّوا وَاستَكبَرُوا استِكبَاراً ﴾ .

إن من دواعى الاستجابة ما تشير إله الآيات الكريمة وهو :

**أولاً :**

الاستمرار وعدم قطع سلسلة الدعوة .. لتظل الدعوة حاضرة في وعى المخاطبين .

**ثانيا :**

إعلام المدعو بأن الدعوة تحقق له نفعاً وهو غسل ماضيهم بكل أوضاره ليصبحوا أطهاراً صالحين لحياة جديدة رشيدة ولا مصلحة للداعى لو آمن المدعو .

ولكن الطغاة هكذا دائماً :

يتخذون الموقف المعاكس .. وكلما توهجت كلمة الحق على لسان الداعى كلما ربّتْ في صدورهم بذرة العناد ..

إن الإيمان الذى يدعون إليه يحقق لهم الرخاء والنقاء ويغير يومهم إلى غد أفضل.. عامر تزدهر به حياتهم ..

إلا أنهم اختاروا أن يكونوا أعداء أنفسهم .. قبل أن يكونوا أعداء للآخرين :

ومن ثم . . لم تصل الصيحة الراشدة إلى قلوبهم :

١- جعلوا أصابعهم في آذانهم .. حتى لا يسمعوا

٢- واستغشوا ثيابهم .. حتى لا يروا من جاءهم بالهدى .

٣- ثم أصروا رغم دوام البلاغ .

٤- وانبثق ذلك كله عن عقدة الكبر .. الذى حملهم على التفنن في معارضته .. كلما لون في عر ض دعوته ..

وليس هو الاستكبار العادى .. ولكنه البالغ منتهاه والذى سول لهم الإصرار الذى كانوا به كالحمار يرفع أذنيه مستويتين ..

وهذا هو معنى الإصرار كما تقول اللغة .

إذن فهى الكناية التى تلوح لعقول المعاندين - إن كان العناد قد أبقى لهم بقية من تفكير- تلوح لهم ليتأملوا مشهدهم المنفر .. حين تعرض عليهم الكرامة .. لكنهم يصرون على أن يظلوا متمرغين في التراب ..

أو كالحمر المستنفرة .. فرت من قسورة !!

**الداعى يبذل فطرته .**

ومع هذا العناد الآخذ على النفس أقطارها .. إلا أن الداعية لا يقطع عنهم المدد.. وذلك قوله تعالى :

**﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوتُهُم جِهَاراً . ثُمّ إِنّيَ أَعلَنتُ لَهُم وَأَسرَرتُ لَهُم إِسرَاراً . فَقُلتُ استَغفِرُوا رَبّكُم إِنّهُ كَانَ غَفّاراً . يُرسِلِ السّمَآءَ عَلَيكُم مّدرَاراً . وَيُمدِدكُم بِأَموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لّكُم جَنّاتٍ وَيَجعَل لّكُم أَنهَاراً ﴾** .

يضاف إلى ذلك .. زيادة نسبة الترغيب .. في نعيم أكمل وأشمل لو أنهم آمنوا :

ولاحظ ما تفيده " ثم " على رأس الآية الكريمة :

فهى تفيد مضى مدة طويلة .. قبل أن يبدأ الداعى مرحلته التالية .

مدة .. يلتقط فيها أنفاسه .

وفيما يتعلق بالمدعو :

يتاح له في تلك الفترة استيعاب الحقائق التي سمعها .. فلعله أن يفيق . ثم يتخذ قرار الإيمان .. أو السكوت على الأقل عندما يكون الجهر أليق .

وقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ دَعَوتُهُم جِهَاراً ﴾

أ - لأن الجهر أليق إذا أريد إلزام المدعو .

ب - ثم إن الداعية بالجهر يسمع غير المدعو .. ممن لم يكن يقصده بدعوته ابتداء..

ولو أنه آمن لكان :

أ- رصيداً للدعوة

ب- وفى نفس الوقت مخصوماً من حساب الأعداء .

**يقول " أبو السعود " في تفسيره للآية الكريمة :**

[ قيل : لما كذبوه بعد تكرار الدعوة . حبس الله عنهم القطر . وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة .. وقيل سبعين سنة .

فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب .. ويدفع عنهم ما كانوا فيه] .

ولكن القوم كانوا من التمرد في المكان البعيد ..

لقد وعدهم الله تعالى بالخصب . وبالقوة البشرية التى تجعل لهذا الخصب قيمة .

ثم إن هذا الوعد يأتيهم وهم رازحون تحت وطأة الحاجة إلى الخصب .. وإلى الولد.

لكنهم رفضوا اليد الممتدة إليهم بالعطاء .

**الجو يكفهر :**

ولئن صبر الداعية على هذا العناد .. بل صابره . فإن لهذا الصبر حدوداً . وقد بدأ الجو يكفهر فعلاً .. حين بدت نبرة التهديد تتعالى :

﴿ مَا لَكُم لاَ تَرجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَد خَلَقَكُم أَطوَاراً . أَلَم تَرَوا كَيفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً . وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرضِ نَبَاتاً..﴾ الآيات .

وفى الآيات الكريمة عرض لمختلف الأدلة :

ففيها الدليل الكونى .

والدليل النفسى ..

وكلها تلزم الخصم .

فهو في حكمه على الدعوة الجديدة مخطئ .. لأنه يتجاهل مقدمات هو مبدئياً مسلم بها ..

فهم يرون في آفاق الكون .. وآفاق النفس ما من شأنه أن يلزمهم كلمة التقوى.. ولكنهم يغالطون أنفسهم .. فلا يسلمون بها ..

وأكبر إلزام لهم ذلك الوطن الذى يعيشون فيه .. وما يزخر به من صور النعيم

١- الأرض المبسوطة الممهودة .

٢- جنات ناضرة .. وإن كان لكم دخل في نضرتها . فليس لكم دخل في هذه الأنهار التى تجرى بالرخاء بين أيديكم ثم .. ماذا يعنى الأمر بالاستغفار ؟

لقد كان الأمر بالاستغفار دعوة إلى تجديد حياتهم تجديدها من الداخل بالتوحيد

وتجديدها من الخارج بالتعاون على الخير والبر .. بعيداً عن ضياع الشخصية في خضم أطماع الملأ من الأغنياء المتجبرين .. عن طريق أتباعهم على غير هدى .

يعينهم على ذلك :

نظرات منهم واعية إلى النفس وما تتقلب فيه من أطوار ..

والسموات وما يطرأ عليها من ظواهر ..

والأرض الممهودة المعدة للعيش .. وكيف كانوا فيها بقدرة الله عزَّ وجلَّ بذوراً.. أنبتها الله تعالى .. فإذا هى أشجار تستوى على سوقها .. ثم يكون إخراجهم منها بعد الفناء سبيلاً إلى الحساب على ما قدمت الأيدى . وعلى هذه اللوحة الواسعة تبدو آثار القدرة التى تتقاضاهم الخضوع لله الذى خلقها وحده ..

ومظاهر النعمة التى تستوجب شكره .. وحده أيضاً . ولكن القوم يرفضون الواقع الذى يملأ أعينهم . ثم يهرعون بكل ما يملكون من قدرات ليجعلوا منها هدية متواضعة إلى كل متكبر جبار ..

أى أنهم يديرون ظهورهم لمطالع الضوء .. التى تكشف لهم عن أثمن ما يملك البشر.. لكنهم يبيعون أنفسهم للطغاة .. يبيعون دينهم .. بدنيا غيرهم ..

فما أسهل العيش في منطق العبيد .. في ظل السادة الجبارين ..

وما أصعب تبعات الحرية .. واستقلال الشخصية .. على تلك النفوس الضعيفة التى تبيع نفسها اليوم في أسواق النخاسة ..

وذلك بعض ما يشير إليه قول الحق سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام..وهو يعلن رفض القوم لمنطق الحق .. وإعلان تبعيتهم للباطل :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُم عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّم يَزِدهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاّ خَسَاراً . وَمَكَرُوا مَكراً كُبَّاراً . وَقَالُوا لاَ تَذَرُنّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً ﴾ .

لقد عصوا رسول الله نوح .. ولم يكتفوا بمجرد الإعجاب بالآخرين .

لكنهم اتبعوهم ( وَاتَّبَعُوا مَن لَّم يَزِدهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاّ خَسَاراً ) .

أسلموا زمامهم إليهم . فقادوهم من خسران إلى خسران .. وهذه نهاية المتعة الرخيصة دائماً :

لذة تفضى إلى لذة .. ولا ريَّ هناك ولا قرار .. ولا غايات شريفة يعزى بها المرء نفسه كلما اشتط به المزار ..

بل إن الأمر كما قال الشاعر العربى يشبه حياته بناقة هائمة لا يطفئ ظمأها الماء.. ولا يقضى عليها هيامها .. فهى في العذاب أبداً .. لا تموت ولا تحيا ..

فأصبحت كالهيماء : لا الماء مبرد

صداها .. ولا قاض عليها هيامها

ويشكل الجميع " حزباً " يتآمر لحساب هذه المتعة الدنية .. تعالياً بقيم " المال " والولد و" السلطة " .

﴿ وَمَكَرُوا مَكراً كُبَّاراً ﴾

ورغم الإحساس بهوان الحياة على هذا النحو .. يتنادى الآثمون من كل صوب.. بالتمسك بالأوثان أرباباً من دون الله .

ورغم أن الآثمين يجرون المؤمنين إلى الهاوية . ورغم أنهم منحرفون بمسار القافلة إلى اليسار بعيداً عن جادة الصواب .. فإن قلوباً عُمْياً ما زالت تصفق للراكب الأهوج ..

وربما أتاحت لها السلطة فرصة التهريج تغطى به فشلها .. وربما حققت بذلك نجاحاً.. لكنه النجاح الموقوت بصحوة المؤمنين :

﴿ وَقَد أَضَلّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاّ ضَلاَلاً . مّمّا خَطِيئَاتِهِم أغرقُوا فَأدخِلُوا نَاراً فَلَم يَجِدُوا لَهُم مّن دُونِ اللّهِ أَنصَاراً .

**والملحظ المهم هنا .. أن القوة الآثمة المدمرة .. تختط لنفسها طريقاً يبساً .. ثم تفرشه بآثامها وأخطائها .. ثم يسير بهم هذا الطريق تلقائياً .. إلى الهلاك . وتلك هى نهايتهم .. ويتلفتون بين يديها . ومن خلفها لعلهم يجدون واحداً من الأنصار المزعومين .. لكنهم وجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾.**

إن الشر لا يلد إلا الشر ... وكما أن للخير قانونه المحقق للسعادة .. فإن للشر أيضاً قانونه الذى لا يتخلف :

لقد أخطأوا .. فساروا ضد تيار الحياة .. فجرفهم التيار .. بعيداً .. بل احتواهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

غير أن هذه النهاية تتحول على لسان نوح عليه السلام إلى دعوة تكشف سنة الله فى الظالمين .

إن بعض الناس قد يسرق .. فيروع الآمنين ..

وقد تكون هناك محاولات للتضليل . . أو التخديل .

وتجاهل هذه القلة يتيح لها أن تنفث .. سمومها .. الأمر الذى يمكن لهم في الأرض .. ليعيثوا فيها فساداً ..

ولقد اقتضت سنة الله تعالى هنا أن يريح المجتمع من شر هؤلاء .. حتى لا تمتد لهم جذور .. وحتى لا تخرج من أصلابهم أجيال .. تحمل نفس الروح لتقوم بنفس الدور ..

أى أن تطهير البيئة منهم عمل صالح .. من حيث كان تمهيداً لبذور الخير أن تنمو .. وتسمق فروعها .وللرسالة أن تجد لها سبيلاً إلى قلوب متفتحة لها ... مشوقة إليها .

وعبر هذا العناء الطويل .. والجهد المتواصل يتقدم المؤمنون . على أنقاض المجرمين .. ليقودوا الحياة .. إلى مستقبل أفضل .. في رعاية من الله ورضوان ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ .

إن المغفرة التى رفضها الكافرون .. تصبح اليوم نعمة تظلل فقط من آمن با لله ورسوله ..

والحياة التى هى منة من الله تعالى .. تعود إلى أصحابها المخلصين لها .. والوطن الذى يضمنا في رحابه .. مهاد واسع رحيب . لكل مؤمن ملتزم بإيمانه بالله وبالرسول . ويأكل من خيراته ثمرات .. من الأمن .. والعزة .. والقرار .

وبيت العائلة الكبير .. بيت الرسول عليه السلام يصبح اليوم رمزاً للسلام . السلام الذى يرفرف على كل راغب في السلام .. داع إلى الوئام ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الأنعام : ٤٥ ] .

**( الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات )**

# الفهـــرس

******